
رواية
لحظات عشق
تأليف
عبد الرزاق الحچامي
دار الصحوة

لحظات عشق

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م



دار الصفوة

للطباعة والنشر والتوزيع

بئر العبد - خلف محطة دياب

تلفاكس : (+9611) 27 49 42 _ (+9611) 55 29 00

جوال : (+9613) 80 01 49 ص.ب : 25/91 بيروت - لبنان

E-mail : dar_asafwa@hotmail.com

رواية إسلامية

لحظات عشق

رواية تحكي رحلة إنسان من الجهل والضياع إلى الإيمان والتوحيد

تأليف

عبد الرزاق الحچامي

دار الصفوة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

[سورة آل عمران، الآية: ١٨]

مقدمة المؤلف

قد يسألني صغير عن الله، عن مكانه أين هو؟ ولماذا لا يظهر لنا فنراه؟ وهل له شكل وصورة كصورنا؟ ولأنه طفل صغير فإن الكثير منا يعذره، ويجيبه على تساؤلاته هذه بما يتناسب مع عقله وصغر سنه، ولكن..

ولكن لماذا حينما يَطرح مثل هذه التساؤلات شاب، أو ممن بلغ سن رشده، يزجره الكثير منا وينهاه عنها؟ انك بزجره هذا إنما تزيد الطين بلّة، والظلمة ظلمة. إنك لن تستطيع إبعاد ما في فكره عن فكره بهذه الطريقة حتى وإن تظاهر لك بالامتناع.

إنه يبحث ويتساءل، ومن حقه هذا، فلماذا لا نجيبه بما أجاب به القرآن؟ لماذا نزجره ونسخط عليه بدلاً من أن نعرّف له ربه بأنه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾.

وكتابنا هذا يجيب على مثل هذه التساؤلات بأسلوب قصصي لطيف ضمن رواية يستمتع القارئ بمطالعتها، وليس هذا فقط، بل ينقله إلى مرتبة أعلى من هذه التساؤلات في معرفة الله، ويحل التناقضات التي قد تراود ذهن العديد من الإخوة والأخوات في شأن أفعال الله وصفاته.



إذن هذه الرواية تنثر بذور معرفة الله في قلوب قرّائها، ولكن ما هي أهمية هذه المعرفة، وما الفائدة منها؟

لو سألتَ ثلاثة من أصدقائك عن حبهم لزيد الذي هو قمة في الأخلاق والصفات الحسنة، وكان صديقك الأول لم يسمع عنه ولم يره قط، وكان الثاني قد سمع عنه اليسير، أما الثالث فلم يكن قد سمع عنه فقط، بل عاش معه وشاهده عن قرب، فماذا نتوقع أن يكون جواب كل منهم عن مدى حبهم له؟

من الطبيعي أن يستنكر الأول أصل السؤال، ويقول: (كيف أحب شخصاً لم أعرفه ولم أره)، ونحن نعطيه الحق في ذلك.

أما الثاني فمن المتوقع أن يقول لك: (قد سمعتُ عن صفاته الحسنة وأخلاقه الفاضلة، وأحب أن أراه عن قرب وأعيش معه).

وأما الثالث الذي قد عرف زيداً معرفة قرب ومعايشة، فماذا نتوقع منه الجواب؟ من المتيقن أن يقول لنا: (نعم، أنا أحبه كثيراً. كل يوم يفيض علي بألطافه ويستقبلني بابتسامته، إنه يقوّمني حين عثرتي، ويعفو عني حين خطأي. إنه يكرم الضيف، ويحترم الكبير، ويعطف على الصغير، و... أنا أتشرف بخدمته، وأرجو من الله ان لا يأتي اليوم الذي يبعدني عنه ويفرق بيني وبينه).

إذن الحب والإخلاص وليد المعرفة بالصفات الحسنة للمحبوب، والعشق أعلى درجة منه، وإذا كان كل إنسان حَسن لا يخلوه في الوقت نفسه من القُبح والضعف، فالله تعالى كل صفاته حسنة، ومنزّه عن القبح، وكمالاته مطلقة لا حدود لها. إذن لم يكذب علينا العارفون



حينما يصفون عشقهم له، ويتألمون من فراقه، بل يصرخون ويبكون بكاء الفاقدين له[1].

وأنا أتساءل لو كنا موحّدين حقاً، وعرفنا الله وصفاته كما هي، فكيف ستكون عبادتنا له؟ هل ستكون أيضاً عن تثاقل وإجبار، أم تتحول إلى عشق واشتياق وحب وإخلاص؟ هل سيخوض أحدنا صراعات مع نفسه ومع الشيطان حينما يريد القيام للصلاة، أم يعدُّ اللحظات شوقاً لحلول وقت اللقاء؟

إن الكتب التي تدعو إلى التوحيد ومعرفة الله تعالى كثيرة جداً، وتملأ المكتبات الورقية والإلكترونية، ولكن المشكلة تكمن في أن الشخص حينما يبدأ بمطالعة كتاب ما عن التوحيد، فإنه يواجه أمراً معقداً، وكلمات غريبة لا يفهمها. يقرأ كلمات (التوحيد الواحدي والأحدي، أو الإمكان الماهوي والوجودي، أو الصفات الذاتية والسلبية)، وغيرها من المصطلحات التي يعتقد حينها أنها تختص بطلبة الحوزة العلمية، وعليه أن يصبح طالب حوزة قبل مطالعة كتاب مثل هذا. وبسبب ذلك قد يترك الموضوع من أصله! يترك أول أصل من أصول الدين. يترك الدعامة الأساسية لجميع الأصول والعقائد الأخرى، وهو التوحيد[2].

وكتابنا هذا يحل هذه المشكلة، ويعرض مطالب التوحيد ومعرفة

---

(١) كما ورد في دعاء كميل للإمام علي عليه السلام: (لأصرخن إليك صراخ المستصرخين، ولأبكين عليك بكاء الفاقدين، ولأنادينك أين كنت يا ولي المؤمنين، يا غاية آمال العارفين يا غياث المستغيثين، ياحبيب قلوب الصادقين).

(٢) تفسير الميزان للسيد الطباطبائي/ ج٢ / ص١٣١ : (وقد مر بيان أن الإسلام دين التوحيد فهو يرجع الفروع إلى أصل واحد هو التوحيد، وينشر الأصل الواحد في فروعه).



الله بشكل رواية لطيفة جذابة، سعيتُ فيها جاهداً لاستخراج كنوز المعرفة من تلك الكتب القيمة، ثم عرضها للقارئ العزيز بأسلوب قصصي بسيط، غايته زرع بذرة التوحيد ومعرفة الله لديه.

وطلبي ممن يطالع كتابي هذا من الإخوة والأخوات ان يرسلوا لنا آرائهم ونقدهم له، فلعلنا نستنير بها وننهل منها في طبعات الكتاب اللاحقة، وعسى أن يكون عملي وإياكم هذا حسنة جارية تعيننا، وتكون زاداً لنا في سفرنا الأبدي إن شاء الله...

عبد الرزاق الحجامي
١٥/ ١/ ٢٠١٤
البريد الإلكتروني:
azq967@gmail.com



الفصل الأول

قسوة الطفولة

كنتُ صغيراً لا يسمح لي سني حينها بالتعبير عما يدور في داخلي من ألم فراق الأم، وانه لا أحد يشغل مكانها. كنتُ لا أستطيع القول لوالدي أن البيت أصبح ظلام في ظلام بعد وفاتها، وأن كل وسائل اللعب في الدنيا لو وُضعت بين يديَّ لا تعادل بسمة من بسماتها، ولا مسحة من مسحات يدها على رأسي، ولا لحظة من لحظات ضمها لي إلى صدرها الحنون...

نعم، كنتُ أحسُّ بذلك، ولكن أنّى لطفل بسن السادسة من عمره أن يبوح بهذا الإحساس، ويعرضه على الآخرين.

ابتلّ وجهي بالدموع، وقلتُ لأبي:

ـ بابا: أنا لا أريد شيئاً ولا طعاماً، أريد أمي أن تعود لي.

كانت الأيام تمضي بصعوبة بالغة، ولم يكن لديّ أنيس فيها إلا البكاء أمام والدي بين الحين والآخر، وزادها أن شبح المرض الذي صرع والدتي فأهلكها قد أدلى بردائه عليّ أيضاً، بل لم يكتف بي فسرى إلى أختي الصغيرة (زينب).

لم تكن في قريتنا سبل الوقاية أو العلاج من هذا المرض الخبيث الذي لا يرحم صغيراً ولا كبيراً، ولم تطقه (زنّوبة) الصغيرة التي



فارقتنا أيضاً، وتركتني وحيداً أصارع المرض، وأعيش مُقعداً على الفراش بين الموت والحياة.

جزع الناس مني حتى والدي، نعم، حتى والدي الذي بات يتركني وحيداً في البيت ويذهب لعمله، أو يقضي الوقت خارجاً مع زملائه، وقد لا يعود لي إلا بعد يوم أو يومين!

تعساً لهذه الحياة التي جعلتْ شربة الماء حلماً أحلم به، وأنتظر والدي ليأتي بعد يومين ليتفضل علي بقدح منه. أما الطعام فكان عبارة عن قطع من الخبز اليابس الذي كان يتركه تحت رأسي كي تصل يدي إليه، وحتى ذلك الخبز لم يكن كله لي، بل كانت الفئران تأكل منه أيضاً، ولا تتنازل عن سهمها منه!

طفل صغير لم يتجاوز سنينه الستة ماذا بوسعه أن يفعل وهو قعيد الفراش في ظلام الليل الأسود، بين أصوات الفئران والصراصير، يتلوى من شدة ألم المرض والجوع...

كان أبي يترقب موتي ويتعجب من بقائي حياً كلما رآني. كنتُ ألاحظ عليه علامات الاستياء والتضجر مني رغم أنه لم يعد يزعجه بكائي حين أراه لأني لم أعد قادراً على البكاء!

ذات يوم فتحتُ عيني وانا بين الإفاقة والإغماء لأرى عمتي جالسة بجنبي، تبكي وتحاول أن تضع شيئاً ما في فمي. لم أكن قادراً على الكلام معها، وكنتُ أكتفي بالنظر إليها بين الحين والآخر. بدأتْ مع بنتها التي لم تتجاوز العاشرة من عمرها بتنظيف الغرفة وتبديل الفراش الذي تحت بدني.

أصبحت عمتي تأتي يومياً لعيادتي، وتضع الطعام والدواء في فمي، ولكني لم أكن أرى أبي يأتي معها ولا بعد ذهابها حتى مضى



أسبوع على هذه الحالة، إذ تمكنتُ بعدها من النطق والتحدث معها، حينها قالت لي وقد جرت دمعتها من عينيها:

ـ عزيزي أحمد، كيف قضيتَ الأسبوع الأول من رقودك هنا؟

قلتُ لها:

ـ إن أبي كان يأتي كل يوم أو يومين ويعطيني الماء والطعام.

لم تطق عمتي الكلام الذي قلته لها فانفجرت بالبكاء، وأفصحت عما في داخلها بعصبية بالغة، وقالت:

ـ إن أباك المجرم لم يقل لنا إنك مريض ومُقعد هنا. كان يترقب موتك كل يوم كي يتمكن من الزواج من المرأة التي شرطت عليه أن لا يكون له ولد على قيد الحياة. تعساً لهذا الأب القاسي الخالي من كل عواطف الرحمة والأبوة.

سكتت قليلاً لتمسح الدموع من على وجهها المبتل، ثم قالت:

ـ إن أباك لم يكن يعلم أن الموت والحياة ليس بيده، بل بيد الله الذي خلقهما[1].

تحسنت حالتي شيئاً فشيئاً حتى أصبحتُ قادرا على القيام والقعود، بل على المشي والخروج من الغرفة إلى ساحة البيت.

وبعد غياب أكثر من أسبوعين جاء أبي ليقول لي: إن أمك سوف تأتي عن قريب! نعم، وقال لي أيضاً:

ـ سوف أجلب لك أماً جديدة ترعاك وتغمرك بالعطف والحنان.

كنتُ لا أعرف أي معنى لكلمة الأم إلا العطف والرحمة، وحينما

---

(١) الملك / ٢: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾.



سمعتها طرتُ فرحاً وسروراً، وحلّق خيالي إلى تلك التي تضمني إلى صدرها، وتغذّيني بحنانها، وتمسح عني الدموع حين البكاء.

أصبح اسم الأم يتردد على لساني، وكلما رأيتُ والدي أسأله عن الوقت الذي سوف تأتي به الأم الجديدة، وهل سأصبح مثل أصدقائي، أعود من اللعب فتقبّلني وتضمني إلى صدرها، وتعطيني الماء والطعام.

ذات يوم قال لي والدي أنها ستأتي غداً إلى هذا البيت، وأمرني باستقبالها وإطاعة أوامرها.

وجاء اليوم الموعود...

نعم، جاء اليوم الذي دخلتْ فيه زوجة والدي إلى بيتنا، فأسرعتُ لاستقبالها، وألقيتُ بنفسي على صدرها لتضمني اليه، وتغذّيني بحنانها، ولكن!

ولكن بدلاً من ذلك تلقيتُ صفعة منها على وجهي قبل أن يصل صدري إليها، وطرحتني أرضاً، وقالت لي بوجه عبوس:

ـ أهكذا يحترم الأبناء زوجة والدهم!؟

تهدمتْ كل الآمال التي بنيتها في مخيلتي، وأصبحتْ حياتي في البيت أسوأ مما كانت عليه بأضعاف وأضعاف.

كنتُ أخاطب والدي وأشكو إليه بين الحين والآخر سوء معاملتها لي، وأنها تهينني وتحرمني من الطعام والشراب، وأنها ليست كأمي الأولى التي وعدني بعودتها، ولكن والدي لم يكن يجيبني إلا بالتوبيخ والإهانة والصراخ عليّ، وماذا بوسع طفل في السادسة من عمره أن يفعل مقابل ذلك إلا البكاء..



ما اكتفتْ زوجة والدي بهذا، بل راحت تحثه على ضربي وتأديبي بحجة أني لا أطيع أوامرها، وأني أهينها وأسبّها، ولم يكن بوسع والدي إلا تصديقها وتنفيذ ما تريده منه.

ومن فضل الله عليّ أنه في معترك هذه المحنة لم تتخلى عني عمتي حتى بعد شفائي، بل كانت بين الحين والآخر تأتي إلى بيتنا وتعترض على والدي، وتقول له: إنه طفل لا يعرف للحقد معنى، فكيف تصدق زوجتك بأنه يريد التفرقة بينكما.

لاحظتْ عمتي استياء والدي منها، مما دعاها إلى أخذي لبيتها المجاور لبيت والدي، ثم دخلتُ المدرسة بفضل الله وعمتي التي كانت توفر لي كل احتياجاتها ولوازمها، وتغذّيني بعطفها وحنانها، فكنتُ أنام الليل بجنبها، وفي الصباح اذهب إلى المدرسة فتلاحقني بابتسامتها ودعائها، وحينما أعود تضمني إلى صدرها الحنون، وأستمر ذلك سنين عدة، ولكن..

في منتصف ليلة من ليالي الصيف الحار، وحينما كنتُ نائماً جوار عمتي هبت ريح شديدة وعاصفة على قريتنا، وحيث كانت بيوتنا من الطين وضعيفة في بناء جدرانها وسقوفها، لم يتحمل بعضها هذه العاصفة، وواحد منها كان بيت عمتي!

نعم، لم يطق الجدار غضب العاصفة، فانهار على رؤوسنا، وتبعه السقف في ذلك.

كم كانت ليلة ظلماء قاسية، استيقظتُ فيها من أثر الصوت مرعوباً، وأردتُ القيام فوراً وإذا برأسي يصطدم بشيء ما! أردت القيام



مرة أخرى ولكن الحالة تبدو أسوأ وأسوأ لأني أصبحت عاجزاً حتى على رفع رأسي، فضلاً عن بدني الذي أحسستُ بثقل عظيم فوقه.

ظلمة في ظلمة! كنتُ اسمع دوي صراخ النساء وبكاء الأطفال، وطقطقة الأحجار التي يسعى الناس لإزالتها وتحريكها من على أبدان الضحايا.

أحسستُ باختناق في صدري وألم في جميع اعضاء بدني، وماذا بوسعي إلا البكاء فبكيتُ لأضم صوتي إلى أصوات الأطفال الذين كنتُ أسمع صراخهم.

تذكرتُ عمتي التي كنتُ نائماً بجوارها، فصرختُ ولكن بصوت ضعيف هزيل:

ـ عمّه، عمّه.

لم ينقطع صوت دوي الناس وحركتهم في رفع الأنقاض، بل احسستُ بعد ساعات بوضوحه أكثر وأكثر حتى سمعتُ شخصاً يقول:

ـ إنه حي بين الأنقاض، سبحان الله، انظر إليه، لقد أنقذه التقاء الحجرين فيما بينهما.

أخرجوني وطرحوني أرضاً بانتظار سيارة تأتي لنقلي مع سائر الجرحى والضحايا إلى مستشفى المدينة، ولأول مرة بعد الحادثة فتحتُ عيني بصعوبة بالغة، وليتني ما فتحتها ولا أبصرتُ بها..

لقد رأيتُ بعيني كيف يستخرجون عمتي من بين الأنقاض وقد لطختها الدماء. ليتني كنتُ أستطيع التحرك والقفز إليها واحتضانها، احتضان الابن لأمه، ليتني أستطيع التكلم معها بالكلام الأخير وأقول لها أماه، أماه.



أصبحتُ ضائعاً تائهاً بعد وفاة عمتي التي كانت لي كالحصن الأمين الذي ألوذ به، والدرع المتين الذي أحتمي به من ظلم الآخرين. رجعتُ مُكرَها إلى بيت والدي، لا برغبة مني ولا من والدي وزوجته.

في أول يوم دخلتُ فيه البيت بدأتْ زوجة والدي بالحرب التي لا هوادة فيها، فهي لا تفشل في حيلة من حيلها إلا ودخلت في حيلة أخرى ومكر جديد، وكل ذلك من أجل إخراجي من البيت كي تخلو الأجواء لها دون شريك ولو كان طفلاً بسني!

كانت إحدى محاولاتها الفاشلة هي إقناع والدي بمنعي من الذهاب إلى المدرسة بحجة أنها مكلِّفة، وتحتاج إلى أموال لديمومتها، ولكني تعهدتُ له بأني لا أطالبه بأي شيء أو مال أو كتاب..

مضت أعوام عدة وأنا على تلك الحالة مع زوجة والدي و..

ذات يوم نهضتُ من النوم ولم يكن والدي في البيت فجاءتني ويبدو من ظاهرها انها تكمن في داخلها شر جديد، وما إن رأتني حتى بدأت بالكلام البذيء والسب والشتم لي، ثم أسرعتْ وأتتْ بقدح زجاجي وضربتني به، حينها أجبتها برد القدح المكسور عليها، وليتني ما فعلتُ ذلك، إذ ساعدها عملي هذا بالاستمرار في خطتها وإكمالها، فراحت تصرخ بعد أن مزقت ثيابها، وكشفت عن شعرها، وخرجت لتقف أمام باب البيت!

اجتمع الجيران وأهل القرية حولها يسألونها عما حدث، ومن الذي فعل بها هذا، ولم تمض دقائق حتى جاء أبي مسرعاً حين سماعه



الخبر، وما إن وصل حتى ارتفع صوت صراخها أمامه، وقالت له أمام أعين وأسماع الناس:

ـ كيف تقبل أن يُفعل بي هكذا؟

سألها والدي وقد امتلأ غيضاً حين رآها بهذه الحالة:

ـ ومن فعل بك ذلك؟

ـ إنه ابنك، وأنا لن أدخل البيت حتى يخرج منه!

وجلستْ أمام عتبة الدار لترى أبي ماذا يفعل بي. لم يكن بوسع والدي إلا أن يدخل البيت وهو في حالة فوران شديد، فانهال علي بالضرب، ثم رأيته يتجه نحو البندقية التي في زاوية الغرفة، وتيقنتُ حينها أنه يريد قتلي فهربتُ منه مسرعاً، وخرجتُ من البيت لتدخل زوجته وقد حققت غايتها ومرامها من فيلمها الأخير.

توجهتُ نحو بساتين القرية واختفيتُ عن الأنظار بين أشجارها وقد علا صوت بكائي هناك، لا أعلم إلى أين المسير والمصير، وما الذي ينتظرني، وأين سيكون مبيتي هذه الليلة، وكيف سألتحق بالمدرسة وأستمر فيها...

كنتُ غارقاً في البكاء، وقلبي يحترق ألماً من سوء حظي منذ طفولتي وحتى الآن، وانقطع أملي من كل طريق أسلكه، فرفعتُ يدي للشكوى من ربي الذي كنتُ أشك بوجوده وقدرته، وقلتُ له: يا رب إذا كنتَ تسمع وترى كما يقولون فأين أنت من حالي، وإذا كنتَ أرحم من الأم بولدها كما تقول عمتي، فهل هناك أم تقبل ما أنا فيه لولدها؟

لم أكمل شكواي حتى أحسستُ بشخص يضع يده فوق كتفي من الخلف، ويقول:



ـ ما بك، ولماذا تبكي؟

التفتُ إليه ومسحتُ دموع عيني لأراه. رأيته ولكني لم أنطق بكلمة واحدة ولم أجبه، بل اكتفيتُ بالنظر إليه، فبادرني بالسؤال مرة أخرى، وقال:

ـ أين أهلك، وهل أنت من أهل هذه القرية؟

تجرأتُ على الكلام معه هذه المرة وأجبته:

ـ نعم.

ـ إذن قل لي لماذا تبكي، أنت لست بطفل صغير، ولا بد من وجود سبب لبكائك؟

ـ لقد طردني والدي من البيت بسبب زوجته.

ـ وهل فعلتَ أمراً ما حتى يخرجك من بيته؟

حكيتُ له الواقع الذي حدث، فسألني عن اسمي واسم أبي ومكان بيتنا، وحينما أجبته عرف والدي، ثم قال:

ـ صحيح ما قلتَه، والكثير من أهل هذه القرية يعلم بمكائد هذه المرأة وظلمها لك.

سألني عن عمري فأجبته بأني في سن السادسة عشر، وأخبرته بأني أريد الذهاب إلى بيت خالتي في المدينة، ولكني لا أعلم الطريق، وليس لديّ أي مال يساعدني في الوصول إليها.

سألني عن اسم المنطقة وعن عائلة خالتي فأجبته، حينها أطرق قليلاً، ثم قال:



ـ أنا مدرّس ومدير إحدى مدارس تلك المنطقة التي قلتَ إن خالتك فيها، وانا ذاهب الآن هناك.

كدتُ أطير فرحاً حين سمعتُ ذلك منه، واستغربتُ تلك المصادفة، وقلتُ في نفسي: سبحان الله، أيكون هو الله الذي أتى به في هذا الوقت وفي هذا المكان الذي نادراً ما يتردد عليه أحد؟ وهل يمكن أن يستجيب لي الرب بهذه السرعة مع اني لم أكن متوجها له من قبل!

نعم، لم أكن من قبل أعرف ربي وألطافه، وإنه حقاً يسمع ويرى. لم أكن أعلم أن ربي أرحم من الأم بولدها، بل كنتُ أسمع ذلك ولكني لم أصدقه، فكيف يكون الرب الذي يتحدثون عنه أرحم من أمي التي كانت تضمني لصدرها الحنون حين عودتي من اللعب، وتمسح بيديها التي مِلأها الرحمة والحنان على وجهي المبتل بعرق الشمس وحرارتها! ولكني الآن..

ولكني الآن لمستُ هذه الرحمة، وإنه أرحم من أمي، فضلاً عن أبي الذي طردني من بيته.

أمسكتُ بيد الأستاذ وقلتُ له:

ـ إذن لنذهب يا أستاذ..

ـ اسمي أستاذ كمال.

ـ لنذهب يا أستاذ كمال، فأنا مشتاق جداً لخالتي.

انطلقنا مشياً على الأقدام لغرض الوصول إلى الشارع العام، وفي أثناء مسيرنا سألته:



ـ أستاذ، تُرى من الذي أتى بك في نفس الوقت الذي أتيتُ أنا به، وفي هذا المكان الذي لا يتردد عليه أحد إلا ما ندر؟

أجابني ويبدو على وجهه أثر الثقة والاطمئنان بما يقوله:

ـ الله.

قلتُ له:

ـ لدي إيمان بالله، ولكن يراودني الشك به في بعض الأحيان، فكيف أتيقن بوجوده؟ يقولون أنه موجود ولكنني لم أره.

توقف الأستاذ كمال عن السير ونظر لي نظرة عميقة، وقبل أن ينطق بشيء بادرته، وقلتُ له:

ـ أستاذ، قلتُ لك الصراحة، وأريد منك أن تتعامل معي هكذا.

ـ حسناً، وبأي طريقة تحب أن أتعامل معك، وأثبت لك وجود الله؟

ـ نحن درسنا الرياضيات والفيزياء والكيمياء و..

ـ إذن تريد استعمال هذه العلوم في إثبات وجود الله؟

ـ نعم.

أشار إلى شجرة كانت بجوارنا، ثم قال:

ـ إذن لنجلس تحت ظل هذه الشجرة ونكمل الحديث.

جلسنا تحت ظلها، وأخذتُ قسطا من الراحة، ثم طلبتُ منه إكمال الحديث، فقال:

ـ سوف أذهب قليلاً ثم أعود اليك، انتظرني هنا!

غادرني فاستغربتُ ذهابه المفاجئ، ودخلني شيئاً من الخوف من



تصرفه هذا. شغلتُ نفسي بالتطلع للبساتين المحيطة وأشجارها، والخضار والورود التي ملأت أرضيتها، ولكنه لم يعد.

أقلقني تأخر الأستاذ كمال، وأصبحتُ أضرب أخماساً بأسداس حتى عاد لي، فسألته بلهفة بالغة:

ـ لماذا تأخرتَ يا أستاذ، لقد قلقتُ عليك كثيراً.

أجابني بهدوء:

ـ اردتُ العودة إليك سريعاً ولكن اعترضني أمر عجيب..! رأيتُ عاصفة قد هبّت فحرّكتْ أخشاباً كانت ملقاة على الأرض، ومن باب الصدفة العجيبة أن هذه الأخشاب اصطفت من تلقاء نفسها بشكل قارب صغير! وفي نفس الوقت ارتفعت بسامير كانت مبعثرة لتقف فوق الأخشاب! ثم هبّت ريح أخرى ورفعت مطرقة، ومن باب الصدفة أيضاً أن المطرقة كانت تقع في كل مرة على بسمار فتدّقه، حتى رأيتُ أمامي قارباً جميلاً، فركبته وتجولتُ به في النهر ثم عدتُ إليك!

استغربتُ من كلامه حتى شككتُ في سلامة عقله، فقلتُ له:

ـ ومن الذي فعل ذلك كله؟ وهل يُعقل أن تكون الريح وهي غير عاقلة أن تفعل كل ذلك دون نجّار ماهر يقص الأخشاب وينظمها ويدقها بشكل قارب جميل كما تقول؟

ـ ألا يمكن ذلك؟

ـ كلا، ولا أستطيع أن أصدّقه.

ـ وهل تستطيع أن تصدق بأن الكون وما فيه من مجرات وكواكب وسماء وأرض وشمس وقمر ومخلوقات قد تكوّنت بالصدفة من تلقاء نفسها دون وجود خالق حكيم لها؟



علمتُ سبب تأخره المقصود فبماذا أجيبه؟ لزمتُ الصمت منتظراً أن يكمل حديثه، فقال:

ـ عزيزي أحمد، اعلم أن احتمالية كتابة كلمة واحدة فقط على ورقة ككلمة (بَيْنَ) مثلاً من قِبل شخص لا يعرف القراءة والكتابة هو ما يقارب الصفر. نعم، هذا لفرض كلمة لا تتكون إلا من ثلاثة حروف.

إن هذا الإيجاد يحتاج أولاً إلى اجتماع الورقة والقلم، وثانياً القوة التي ترفع القلم وتحركه على الورقة، وثالثاً ترتيب وتنظيم الحروف بما يتوافق مع غاية وهدف الفاعل من كتابتها على الورقة.

فلو فرضنا تحقق الأول والثاني فجلس شخص لا يعرف القراءة والكتابة، ووضعنا أمامه ٢٨ حرفاً، ثم مسك القلم ليكتب كلمة (بَين) بعد أن يختار ويقلّد الحروف التي أمامه، حينها يكون احتمال أن يكتب الحرف الأول (ب) هو (١/ ٢٨)، واحتمالية أن يكون بعده أيضاً الحرف (ي) هو (١/ ٢٨ * ١/ ٢٨)، واحتمالية ان يكتبهما ويكتب بعدهما الحرف (ن) هو (١/ ٢٨ * ١/ ٢٨ * ١/ ٢٨)، أي ما يعادل (٠,٠٠٠٠٤٥)، وذلك يعني ما يقارب الصفر. نعم، هذا ما يقوله علم الإحصاء الحديث.

أحسستُ بطعم الحديث حين رأيته يستخدم علم الرياضيات فيه، إذ كنتُ أحب المسائل الرياضية وحساباتها، لذا طلبتُ منه المزيد، ولكنه قال:

ـ عليك أن تنهض لنكمل مسيرنا حتى نصل الشارع العام قبل حلول الظلام.



اشترطتُ عليه أن يكمل حديثه أثناء المسير، فوافق على ذلك، وبعد خطوات قليلة قال:

ـ مثلاً الإنسان، وهو مخلوق بسيط جداً جداً بالنسبة إلى خلق السماوات والمجرات وما فيها..

قاطعته واعترضتُ عليه بقولي:

ـ ولماذا تقول أن الإنسان مخلوق بسيط جداً جداً.

ـ هو كذلك، بل القرآن يذكر هذه الحقيقة بقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. هل نظرت في ليلة من الليالي إلى النجوم في السماء؟

ـ نعم.

ـ هل تعلم أن النور الذي تراه لبعض هذه النجوم قد انطلق من مكانه قبل آلاف السنين والآن قد وصل إلينا، ولو انفجرت الآن هذه النجمة فسوف لا يعرف الفلكيون ذلك إلا بعد آلاف أخرى من السنين حين يصل ضوء انفجارها إلينا!

ـ آه، ان تصور ذلك مدهش حقاً.

ـ إن هذا لنجمة واحدة من ملايين النجوم في مجرتنا، ومجرتنا واحدة من ملايين المجرات في الكون، وقد اكتشفت المراصد الحديثة أن هناك مئات آلاف الملايين من المجرات التي يبعد بعضها عنّا ألف مليون سنة ضوئية..

قاطعته متسائلاً:

---

(١) غافر/ ٥٧



ـ قل لي بالله عليك يا أستاذ، ماذا تقصد بألف مليون سنة ضوئية؟

ـ السنة الضوئية هي وحدة لقياس المسافات الفضائية، وتعني أن المسافة بين المجرتين بمقدار لو انطلق الضوء من مجرتنا وسار بسرعته الهائلة (٣٠٠,٠٠٠) كيلومتر في الثانية، فسوف يبقى يسير ويسير ألف مليون سنة من سني الدنيا حتى يصل إلى المجرة الأخرى.

كنتُ أسمع هذا المصطلح ولكني لم أكن أعرف معناه، وما عرفته إلا الآن. طلبتُ منه إكمال الحديث، فقال:

ـ أما بعد هذه المسافة فيتراءى للفلكيين فضاء عظيم مهيب ومظلم لا يُبصَر فيه شيئاً، أي أن النور لا ينفذ إليه كي يؤثر على صفحة التصوير في المرصد، وكل هذا العالم العظيم المرئي ليس إلا جزءاً صغيراً جداً من عالم أعظم، ولسنا واثقين من عدم وجود عالم آخر، بل عوالم أخرى غير هذا العالم. والآن تصور كم سيكون الإنسان صغيراً وصغيراً أمام هذه العوالم المرئية وغير المرئية!

تبسمتُ وقلتُ له:

ـ ليس فقط صغيراً وصغيراً، بل جداً جداً جداً.

ـ والآن أعرض لك جنبة واحدة من عجائب خلق هذا الإنسان الصغير وفي جزء صغير جداً منه وهو المخ: كشف علماء التشريح أن من جملة خصائص الخلايا العصبية في الإنسان أنها تولَد بعدد ثابت مع ولادة الإنسان، حيث يكون عددها قد اكتمل قبل الولادة بأشهر، وهذا العدد يبلغ حوالي ١٤ مليار خلية عصبية، منها ٩ مليارات في المخ لوحده تتوزع في ٦٤ منطقة من مناطق الدماغ، وهذا الثبات في العدد مهم لأن الخلايا لو تغيرت وتكاثرت كما تتغير وتتكاثر خلايا



البدن فمعنى هذا إن على الإنسان أن يتعلم اللغة كل ستة أشهر مرة أخرى، وأنه يتعرض لفقدان الذاكرة وكل العلوم التي اكتسبها كلما تبدلت تلك الخلايا، حينها لا يكون هناك أي عالم ولا مفكّر ولا حضارة إنسانية على وجه الأرض.

أصابتني الدهشة من هذه الأرقام الضخمة التي أسمعها، وراودني السؤال عن كيفية انتقال الإشارات الحسية إلى المخ، فسألته وأجاب:

ـ لو تعرض جسم الإنسان لخطر ما كما في تعرض اليد للنار فإن اليد تُسحب فوراً، لماذا؟ السبب في هذا يعود إلى آلية خاصة في النخاع هي ما تعرف بقوس الانعكاس، فعندما تصل الأخبار الحسية عبر الألياف إلى النخاع وهو مركز الحس فإن هذا الخطر لا يُنقل إلى المخ كي تأتي الأوامر منه بسحب اليد، بل إن النخاع يتصرف تلقائياً وفق المصلحة العامة، حيث تصل الأخبار في النخاع من خلايا الحس في الخلف إلى خلايا الحركة في الأمام، وهذه ترسل بدورها أخباراً إلى عضلات المنطقة كي تتقلص بكيفية معينة تقي البدن من الخطر الذي تعرض له، ثم تصعد الأخبار إلى الدماغ كي يقرها أو يعدلها، ولقد قُدّر أن عدد الإشارات التي تصب في الجهاز العصبي في كل ثانية تبلغ مائة مليون إشارة قادمة من الأعضاء الحسية، ولكن ما يصدر إلى الدماغ هو ١٠٠ إشارة فقط، أي إشارة واحدة من مليون إشارة، وذلك كله من أجل أن لا يشتغل المخ بكل هذه التوافه الحسية، بل بخلاصة الأمور وأخطرها![1].

---

(١) الطب محراب الإيمان / ج١ / ص١٠٨



وأزيدك أن علماء التشريح يقولون أيضاً أن هذه الخلايا محمية بجيش خلايا من نوع آخرعددها مائة مليار خلية قد اصطفت مع بعضها لتشكل سداً منيعاً لحراسة الخلايا العصبية من التأثر بأية مادة!

توقف قليلاً، ولما لم أعلّق على كلامه بشيء، استأنف حديثه وقال:

ـ أسألك الآن فاجبني: من الذي صنع هذا العدد الهائل من الخلايا في مخ الإنسان ودون أي تزاحم أو اصطدام أو تعارض فيما بينها؟ ومن الذي منعها من التكاثر دون غيرها، ووزّعها كل في مناطقها؟ وكيف عرفتْ كل خلية وظيفتها والدور الذي على عاتقها، إذ كل مجموعة منها تختص بنقل نوع من الإشارات؟ ولو أردنا حساب احتمالية اصطفاف ١٤ مليار خلية عن طريق الصدفة وبهذا التنظيم والتنسيق وكل حسب نوعه ووظيفته، فكم سيكون الرقم الناتج من المعادلة حسب علم الإحصاء الحديث؟!

قلتُ له:

ـ إذا كان احتمال اصطفاف ثلاثة أحرف لتكوين كلمة (بين) عن طريق الصدفة يساوي (٠,٠٠٠٠٤٥)، فحتما سيكون احتمال اصطفاف ١٤ مليار خلية هو سالب بليار بليار!

تبسم الأستاذ كمال وأشار إلى الجهة التي تؤدي إلى الشارع العام، فأمسكت بيده واوقفته عن المسير، وقلتُ له:

ـ أنا لستُ عجولاً الآن في الوصول إلى خالتي، لنجلس قليلاً ونكمل حديثنا.



ـ ولكن لا توجد شجرة هنا، ولا شيء نستظل بظله، والشمس محرقة كما ترى يا أحمد.

ـ إذن أعطني كلام أنك تجيبني على سؤالي قبل ركوب السيارة.

ـ وأي سؤال؟

ـ أ أ، أنا آمنتُ أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون هذا الكون والأرض والمجرات وما فيها قد وُجدت من دون صانع وخالق عاقل وحكيم هو الله، ولكن..

لم أكن أتجرأ على نطق السؤال الذي كان يدور في خاطري، وبقيت مترددا فيه، ولكن الأستاذ كمال تدارك الموقف، وقال:

ـ قل ما عندك يا أحمد، ان هناك أفكاراً ترد على كل إنسان، وليس من الصحيح التهرب منها.

ـ إذن قل لي يا أستاذ من خلق الله، الستَ تقول ان لكل مصنوع صانع، ولكل مخلوق خالق؟

كنتُ أتوقع منه ان لا يجيبني على تساؤلي هذا، إذ ظننتُ انه كعمتي التي كانت تتهرب من هذا السؤال وتنهرني حين طرحه عليها، ولكني فوجئتُ بابتسامته وإجابته لي بهدوء كامل، فقال:

ـ الله ليس بمصنوع حتى يُقال له من صنعه. الله أزلي وسرمدي ليس له بداية وليس له نهاية، وكل المصنوعات لا بد أن تنتهي إلى صانع غير مصنوع وهو الله.فإذا كانت كل الموجودات ممكنة الوجود فسوف



لن يكون هناك أي موجود، إلا إذا كان هناك موجود لا يحتاج في وجوده إلى موجود آخر وهو واجب الوجود[1].

- أستاذ، أرجوك أن لا تتحدث معي وكأني فيلسوف أفهم كل المصطلحات التي تقولها. أرجوك أن توضح لي الأمر ولا تلبسه علي، فماذا تقصد بممكن الوجود وواجب الوجود؟

أطرق قليلاً، ثم قال:

- ممكن الوجود هو الموجود الذي لا يوجد بذاته، وإنما تحققه منوط ومتعلق بموجود آخر، أما واجب الوجود فهو الموجود الذي هو موجود بذاته، ولا يحتاج إلى غيره في وجوده، وهذا يعني أنه أزلي ليس له بداية وأبدي ليس له نهاية.

- إذن أذكر لي مثالاً يبين أنه لا بد من وجود واجب الوجود وهو الله.

- لو كان هناك فريق لسباق الركض، وقد وقف أعضائه جميعاً على خط الانطلاق متأهبين للبدء به، ولكن كل واحد قد قرر في نفسه أن لا يبدأ إلا إذا بدأ صاحبه، ففي هذه الحالة سوف لن يبدأ أي منهم بالركض، ولا يكون هناك سباق أبداً، اليس كذلك؟

- نعم.

- والخلق هكذا، فلو قلنا ان كل ما في الكون هو ممكن الوجود ويحتاج إلى غيره كي يوجده، وهذا الغير أيضاً يحتاج إلى غيره في

(١) هذا ما يسمى برهان الامكان والوجوب في إثبات وجود الله تعالى، وهو أحد وأبسط البراهين الفلسفية القديمة التي تعتمد على بديهيات بطلان الدور والتسلسل في الممكنات.



وجوده، والأخير أيضاً... حينها سوف لا نصل إلى نقطة يبدأ بها الخلق، ولا تكون هناك مخلوقات بتاتاً إلا في حالة وجود موجود لا يحتاج إلى غيره في وجوده[1]، أزلي أبدي غير محدود بحد، وهو ما نسميه الله[2].

لقد كان هذا النقاش مع الأستاذ كمال أول قدم وضعتها على طريق معرفة الله، إذ علمتُ ان الله أزلي ليس له بداية، وأبدي ليس له نهاية.

لم أعطه فرصة ختم الحديث، فقلتُ له:

ـ لا يزال الطريق العام بعيداً عنا، ولدي ما أسألك عنه.

تبسم وأشار لي بابتسامته على الموافقة، فسألته:

ـ لقد ذكرت أن الله غير محدود بحد، فما معنى هذا الكلام؟

كان في يده كتابين فتوقف عن المسير، ووضع أحدهما في يده اليمنى والآخر في اليسرى، ثم قال:

ـ هل ترى هذا الكتاب الذي في يدي اليمنى؟

ـ نعم، أراه!

---

(١) أشار القرآن الكريم إلى هذا الدليل في اثبات وجود الله بقوله تعالى في سورة الطور ـ آية ٣٥، ٣٦: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾، فالجزء الأول من الآية ٣٥ أشار إلى ان الممكن ومنه الإنسان لا يتحقق دون علة لوجوده، وفي الجزء الثاني منها أشار إلى ان الإنسان لا يمكن أن يكون علة لوجود نفسه. وفي الآية ٣٦ أشار إلى ان الممكن لا يصح أن يكون موجداً لممكن آخر اعلى منه مرتبة في الوجود.

(٢) يبدو هذا المطلب واضحا في خطبة الإمام علي ﷺ رقم ١٥٠ في نهج البلاغة حين يقول: (اَلْحَمْدُ لِلَّهِ اَلدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ وَ بِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، ...)



ـ أنت ترى هذا الكتاب وتشير إليه لأنه له حد من الأعلى والأسفل واليمين واليسار، اليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ أما الله تعالى فليس له حدّ يحده، فهو لا يُشار إليه بالإشارة، ولا يُرى بالعين الناظرة، أزلي ليس له بداية وسرمدي ليس له نهاية. والآن قل لي متى تستطيع أن تقول بأن هذا الكتاب الذي في يدي اليمنى قد انتهى فكان أول، وهذا الذي في يدي اليسرى بدأ فاصبح ثاني؟

لم أفهم ما يقصد من سؤاله، فبقيتُ متحيراً في إجابته حتى قال:

ـ أنت لا تستطيع ان تقول هذا أول وذاك ثاني إلا إذا انتهى حد الأول وبدأ حد الثاني، وهو مانراه في الأشياء التي حولنا، حيث نميّزها ونعدّها بحدودها، فهل تتفق معي في هذا الرأي؟

ـ نعم يا أستاذ، أتفق معك.

ـ أما الله تعالى فليس كذلك، لأنه غير محدود بحد، فلا يمكن عدّه أو تصور ثانٍ له حتى في الخيال[1].

وقفنا على جانب الطريق العام بانتظار قدوم سيارة توصلنا إلى المقصد، ولم يطل الانتظار كثيراً حتى اتت فركبنا فيها. لقد كانت سيارة حديثة وفيها جميع وسائل الراحة التي يطلبها الإنسان، كما أنها كانت تسير بسرعة فائقة. التفتُ إلى الأستاذ كمال وقلتُ له:

(١) نهج البلاغة للشريف الرضي/ج١٥/ص٢٢: (مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: كَيْفَ، فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: أَيْنَ، فَقَدْ حَيَّزَهُ. عَالِمٌ إِذْ لاَ مَعْلُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لاَ مَرْبُوبٌ، وَقَادِرٌ إِذْ لاَ مَقْدُورٌ...).



ـ ليت هذه السيارة كانت لي، حينها سوف أعيش بسعادة عظمى كما يعيش سائقها الآن!

استغربتُ كثيراً من كلامه حين أجابني، إذ قال لي:

ـ وهذا دليل آخر على وجود الله تعالى!

قلتُ له:

ـ وما علاقة هذا بذاك؟ أنا أتحدث عن هذه السيارة التي نحن فيها، ويبدو ان سرعة السيارة الفائقة قد حجبت السمع عنك يا أستاذ.

تبسم وقال:

ـ إن كل إنسان يعشق الوصول إلى الكمال المطلق، وهذه فطرة أودعها الله فيه. أنت وأنا كثيراً ما نطلب أشياءً ونظن أن كمالنا وسعادتنا سوف تكون في الحصول عليها، ولكن حين الوصول إليها نُملّها، ونبحث عن شيء آخر غيرها، وهكذا حالنا.

ـ أرجو التوضيح أكثر يا أستاذ، فاني لم أفهم ما تقول، وعن ماذا تتحدث.

ـ مثلاً أنت الآن ظننت أن سعادتك العظمى سوف تكون في امتلاكك للسيارة الحديثة الفاخرة، وأنا على يقين تام أنني لو أعطيتك هذه السيارة فإنك سوف لا تفرح بها إلا أياماً قليلة ثم تملّها، نعم، بعد أيام سوف تشعر أن سعادتك وكمالك ليس في هذه السيارة، بل في شيء آخر غيره، فتبدأ تبحث عنه وتتمناه.

يبدو أن السائق كان يصغي للحوار بيننا، وبصورة مفاجئة سمعته يقول:

ـ صحيح والله، قبل أن أحصل على هذه السيارة كنتُ أتوقع أن



منتهى السعادة ينحصر فيها، وكل الهموم والغموم سوف تضمحل وتزول حين الحصول عليها، وها أنا الآن في بحر من الهموم والغموم التي لا تفارقني، مع أنه لم يمض على شرائها سوى شهر واحد!

نظر إليه الأستاذ كمال ولم يعلق على كلامه بشيء، بل استمر في حديثه وبصوت أعلى مما كان، فقال:

ـ وأيضاً حين تجد ذلك الشيء الجديد وتصل إليه تشعر أنه ليس كل مرادك ومطلوبك، فتبدأ بطلب غيره، اليس كذلك؟

أطرقتُ قليلاً ثم أجبته:

ـ نعم، هو كذلك.

ـ وهذا حال كل إنسان على وجه الأرض. فِطرته دائماً تطلب الكمال المطلق، ولكن لا تعرف مصداقه من هو وأين هو، وهذا الطلب المستمر للكمال المطلق هو دليل وجوده.

أرجوك يا أستاذ أن لا تتكلم معي وكأني طالب حوزة، كيف أستطيع فهم كلامك وأنا لا أعرف معنى مفرداته؟

ـ وأي مفردة لم تجد لها معنى؟

ـ المصداق، الكمال المطلق، هذه الكلمات لم أسمع بها من قبل.

تبسم وأخرج قلماً من جيبه، واقترب مني أكثر كي أسمعه، ولا تكون سرعة سير السيارة مانعة منه، ثم قال:

ـ عندما أنطق بلفظة (قلم) مثلاً، ماذا يتراود في ذهنك من معنى لها؟

ـ يراود ذهني ذلك الشيء الذي يُكتب به حين تحريكه على الورقة.



ـ هذا الذي حضر في ذهنك يسمى مفهوم القلم، وأما هذا الذي تراه في يدي يسمى مصداق من مصاديق القلم.

ـ وهل يمكن أن يكون هناك أكثر من مصداق واحد لمفهوم القلم؟

ـ نعم، مفهوم القلم واحد في كل أرجاء الدنيا، ولكن مصاديقه متعددة بعدد الأقلام في الدنيا، فهذا الذي في يدي مصداق للقلم، والقلم الذي في جيبك مصداق آخر له، والأقلام التي تُباع في المكتبات أيضاً تسمى مصاديق له، وهكذا.

فهمتُ المطلب ولكن ليس بصورة كاملة، لذا طلبتُ منه مثالاً آخر، فأجاب:

ـ مثلاً مفهوم الإنسان واحد، أما مصاديقه أنا وأنت ووالدك وزوجة والدك التي أخرجتك من البيت..

تبسم الأستاذ كمال بعد كلامه هذا، وأراد انهاء الحديث إذ حاول إلقاء نظرة إلى الخارج من خلال نافذة السيارة، ولكني لم أعطه فرصة لذلك، إذ سألته مرة أخرى:

ـ لم تخبرني عنِ مصطلح الكمال المطلق، ما معناه؟

ـ الكمال المطلق هو العلم الذي لا جهل فيه، والقدرة التي لا عجز فيها، والحياة التي لا موت فيها، والعدل الذي ظلم فيه، والغنى الذي لا فقر معه. هو الجمال الذي لا أجمل منه، والكمال الذي لا أكمل منه، والكرم الذي لا أكرم منه، والعظمة التي لا أعظم منها، والكبر الذي لا حد له، و..

قاطعته وقلتُ له:



ـ حسناً حسناً، وكيف يكون طلب الكمال المطلق دليلاً على وجوده؟

ـ أنت حينما يصيبك العطش في وسط الصحراء تبدأ تبحث عن الماء لأنه في هذه الدنيا يوجد شيء اسمه ماء، ويرتوي كل من يشربه، ولو لم يكن فلا معنى للبحث عنه وطلبه. وأنت تخرج من بيتك وتبحث عن خبّاز لأنك تعلم بوجود الخبز لديه، اليس كذلك.

ـ نعم، هو كذلك.

ـ إذن حينما يبحث الإنسان دائماً عن الكمال المطلق، فذلك يعني وجود الكمال المطلق، وإن لم يكن موجوداً فلا معنى لبحث الإنسان عنه؟

استغربنا معاً من متابعة السائق الدقيقة لحوارنا، إذ فاجئنا بنفس السؤال الذي نويتُ النطق به، فقال:

ـ وكيف تثبت أن الكمال المطلق هو الله وليس سواه؟

علم الأستاذ كمال مستوى فكر السائق ومتابعته لحديثه، لذا التفت إليه، وقال له:

ـ عندما تتأمل في كل الموجودات التي حولك ترى انها متغيرة ومتبدلة من حال إلى حال، وترى أن عظمة هذه الأشياء وكبرها إنما هو نسبي، فكل كبير فيها يوجد ما هو أكبر منه، كما أنها محدودة، لها بداية ونهاية، وهي مرتبطة مع بعضها ومحتاجة لغيرها، ومثل هذه الصفات لا يمكن أن تكون للكمال المطلق، والأنبياء والرسل إنما أرادوا برسالاتهم وإرشاداتهم أن يبينوا للإنسان بأن المصداق الأوحد للكمال المطلق الذي يبحث عنه إنما هو الله لا سواه.



تبسم الأستاذ كمال مرة أخرى، والتفتَ لي بعدما كان ينظر إلى السائق، وقال:

ـ والآن يا أحمد، هل يمكن أن تكون هذه السيارة مصداقاً للكمال المطلق الذي تبحث فطرتك عنه؟



الفصل الثاني

يتيم في ظلام الليل



وصلتُ بيت خالتي فاستقبلتني وفرحتْ كثيراً بقدومي اليهم، وكذلك كل من كان في البيت معها، وحين قصصتُ لها ما حدث مع والدي قالت بانها كانت تعلم بذلك، واقترحتْ علي البقاء معهم وانها سوف تتكفل بمخارج دراستي كلها.

قضيتُ شهراً مع خالتي وعائلتها إذ أحسستُ فيه براحة واستقرار، وكنتُ خلاله أتردد على الأستاذ كمال الذي لم يكن بعيداً عنا، والذي سعى كثيراً في انتقال دراستي اليهم. ولكن...

لم يستمر هذا الحال، فالدنيا متغيرة بطبيعتها، تنقل الإنسان من حال إلى حال، إذ جاء خبر والدي...

نعم، الخبر يقول أن أبي أصابه المرض وتركته زوجته وحيداً قعيد الفراش في البيت، لا أحد يرعاه ويقضي له حوائجه، بل لا أحد يأتيه وينظر إليه.

تركتُ كل شيء هنا وعدتُ إلى قرية والدي فوجدته بأسوأ ما يكون. دخلتُ غرفته فغمرتني الرائحة الكريهة التي تهاجم كل من يدخلها! وجدته مطروحاً على الفراش، لا يستطيع التكلم والحركة، أما الديدان فقد اتخذت لها بيتاً على بدنه، وتمرح وتجول على ملابسه دون أي مزاحم لها!



رآني فنزلتْ من عينيه الدموع وارتفع صوت أنينه، وراح يحرك بدنه. لا أعلم ماذا يريد مني! خلعتُ ملابسه من بدنه فتساقطت الديدان والقمل منها. وضعتها في الماء المغلي وكانت وسخة جداً وكأن الماء لم يصلها لسنين طويلة.

بقيتُ أرعاه لأيام عدة، والمشكلة التي كانت تواجهني أني كلما استعنتُ بأقارب والدي في القرية لمساعدتي في الدواء والغذاء، لم أجد من يستقبلني، وبعضهم من ينصحني بتركه وفعل ما فعل بي من قبل، وبعضهم من يكتفي بذكر أفعاله السيئة معهم.

لم يكن في القرية طبيب أو مستشفى، فأردتُ نقله إلى المدينة ولكن بأي مال انقله، والمستشفى أيضاً يحتاج إلى مبلغ لرقوده وعلاجه.

فقدتُ الأمل تماماً من أهل القرية فقررتُ الذهاب إلى المدينة حيث بيت خالتي لأطلب منهم مساعدتي في الأمر، وقبل الذهاب دخلتُ على والدي لتوديعه، وحينما أخبرته بالموضوع نزل الدمع من عينيه، وارتفع صوت بكائه معلناً ندمه عن كل ما فعله بي.

لم أكن أملك أجرة الذهاب بالسيارة إلى هناك، فقررتُ المسير مشياً على الأقدام رغم أني أعلم أن الطريق يستغرق يومان على الأقل، كما أني فضّلت ذلك مع تحمل الفاقة والجوع على طلب أجرة الذهاب من أقارب والدي في القرية.

بعد معاناة يومين من المشي والجوع وصلتُ بيت خالتي منهكاً، جائعاً، قد اكل التعب والنحول بدني بكامله، وعندما حكيتُ لخالتي ما جرى، وطلبتُ منها تكاليف نقل والدي إلى مستشفى في المدينة



رأيتها قد تململت في كلامها، وراحت تتعذر بأنهم لا يملكون إلا ما يحفظ رمق حياتهم.

خطر في فكري الاستعانة بالأستاذ كمال، فذهبتُ إليه واستقبلني، وحين جلوسنا قال لي:

ـ لقد أتممتُ لك الانتقال إلى مدرستنا، وأصبحتَ الآن واحداً من طلابنا فيها.

كان يتوقع مني أن أطير فرحاً، ولكن الموضوع الذي أتيتُ به إليه كان أكبر. وعلى كل حال شكرته واظهرتُ له السرور المصطنع، ثم عرضتُ له أمر والدي، وطلبتُ منه أن يرشدني إلى ما يجب علي فعله، فقال:

ـ عليك الرعاية لوالدك حتى آخر لحظة من حياتك وحياته، ولا تسمع كلام الناس من هنا وهناك، وأسمع كلام الله الذي يقول لك: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[1]، فقد جعل مرتبة الإحسان للوالدين بعد مرتبة عبادته مباشرة.

ـ إذن قل لي بالله عليك يا أستاذ ماذا يجب عليّ فعله؟

وقبل أن يجيبني بشيء دخل علينا ابنه الصغير فسلّم علينا وقدم لنا الماء والشاي ثم انصرف، فسالته إن كان له ولد آخر، فقال:

ـ لديّ ولد آخر اسمه عقيل، وهو أكبر من نبيل الذي رأيته الآن.

---

(١) الإسراء / ٢٣



لم يكن الأمر يهمني كثيراً، لذا طلبتُ منه مرة أخرى أن يرشدني في أمري، فقال:

ـ قبل كل شيء عليك الاستعانة بالله..

ولشدة حماقتي والاضطراب الذي كان يعتريني، قاطعته بانفعال قبل أن يتم كلامه، وقلتُ له:

ـ أين هو الله حتى أذهب إليه وأستعين به، وأطلب منه مالاً لعلاج والدي؟

لم ينفعل من كلامي، وأطرق قليلاً ثم قال:

ـ الله تعالى موجود الآن معنا، بل هو في كل زمان ومكان معي ومعك أينما كنآ، وهو الذي أوجد الأين فلا يُقال له أين، هو في كل مكان، ولا يحويه مكان[1].

يبدو أن الأستاذ كمال قد علم بأن كلامه يحتاج إلى توضيح أكثر لشخص مثلي، فراح يسرد لي قصة النبي موسى عليه السلام مع الملائكة فقال:

ـ يُروى أن النبي موسى عليه السلام كان ذات يوم جالساً فجاءه ملك من المشرق، فقال له موسى: من أين أقبلت؟ قال: من عند الله. ثم جاءه ملك من المغرب فقال له: من أين أقبلت؟ قال الملك: من عند الله، ثم جاءه ملك آخر فقال له: قد جئتك يا موسى من السماء السابعة من

---

(١) تفسير نور الثقلين/ج٩/ ص٢٧٧: (... فقال له أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: يا يهودي قد عرفت ما سألت عنه وأجيب عنه به، وإنا نقول ان الله جل جلاله أين الأين فلا أين له، وجل ان يحويه مكان، هو في كل مكان بغير مماسة ولا مجاورة، يحيط علماً بما فيها ولا يخلو شيء منها من تدبيره تعالى...).



عند الله، ثم جاءه ملك آخر فقال له: قد جئتك من الأرض السفلى من عند الله.

تحيرتُ من كلامه، وقلتُ له:

ـ يا أستاذ، لم أفهم ما تريد قوله، هل الله في المشرق أم في المغرب، أم في السماء السابعة أم في الأرض السفلى!؟

ـ هو في كلها، فلا يخلو منه مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب من مكان. بل هو خالق الزمان والمكان.

ـ وهل تعني أنه الآن معنا، يراني ويراك، ويسمع كلامنا؟

ـ نعم، هو كذلك.

ـ ولكني لا أراه، فهل تراه أنت دوني؟

ـ الله ربنا ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1].

ـ ولماذا لا يظهر لنا ربنا فنراه ونسمع كلامه، فهل هو عاجز عن ذلك؟

ـ العجز فينا يا أحمد وليس في خالقنا.

ـ أنا لا أحس بأي عجز في نظري، وأرى جميع الأشياء حولي، إذن لماذا لا أرى الله كما أرى الأشياء، اليس في عدم رؤيته دليل على عدم وجوده؟

تبسم الأستاذ كمال وكأنه تذكر شيئاً، ثم قال:

---

(١) سورة الانعام/ ١٠٣



ـ ذات يوم كنتُ جالساً مع بعض الزملاء في الصف الدراسي فدخل علينا أحد الطلبة ممن لا يؤمن بوجود الله، وقال لهم: هل تروني؟ قالوا: نعم، قال: إذن أنا موجود، ثم قال: هل ترون هذا اللوح؟ قالوا: نعم، قال: إذن اللوح موجود، ثم قال: أترون الكراسي؟ قالوا: نعم، قال: إذن الكراسي موجودة، ثم قال لهم: أترون الله؟ قالوا: لا، قال: إذن الله غير موجود، فأين هو إن لم نكن نراه؟ حينها قمتُ ووقفتُ أمام الجميع وقلتُ لزملائي: هل ترون عقل زميلنا؟ فقالوا: لا، قلت: إذن فعقله غير موجود، أي إنه مجنون، فضحك الجميع عليه.

أعجبني كثيراً موقفه هذا، فقلتُ له:

ـ أحسنت يا أستاذ على هذا الجواب الرائع.

استأنف أستاذ كمال حديثه وقال:

ـ أنت يومياً تشاهد التلفاز، وتتصل عشرات المرات بجهاز (الموبايل)، وترسل الرسائل لأصدقائك عبر الإنترنيت، فهل تشاهد بعينيك تلك الإشارات الصوتية والصورية وهي تنتقل في الفضاء بين هذه الأجهزة؟

ـ كلا.

ـ وهل أنت مؤمن بوجود هذه الإشارات، أم تنكرها لأنك لا تراها؟

لم أجبه، ولزمتُ الصمت لأني علمتُ المقصد من سؤاله.

استأنف كلامه، وقال:

ـ إذن العجز في حواسك التي لا تستطيع رؤية وإدراك هذه الأمواج



والترددات، لا في الترددات نفسها، وهي موجودة بالرغم من أنك لا تراها، أليس كذلك؟

ـ وماذا عن الله؟

ـ الله تعالى لا تدركه أبصارنا[1] لعجزها عن ذلك، على الرغم من أنه موجود معنا، وقريب إلينا في كل وقت ومكان.

ـ حسنا يا أستاذ كمال، أسلمتُ معك أن عيني لا تستطيع رؤية الله لعجزها وعدم قدرتها على ذلك، إذن هل هو جسم كأمثالنا؟ صفه لي حتى أجعل صورته في مخيلتي، وأستحضر هذه الصورة كلما أردتُ عبادته أو دعوته إلى أمر ما، وهذا هو الحد الأدنى الذي أطلبه منك.

تبسم الأستاذ كمال، وقال:

ـ إن والدك ينتظرك الآن ولا بد لك أن تعود إليه بأسرع وقت.

ـ إذن أنت لا تستطيع الإجابة، أو لا تريد وصفه لي، انا أريد أن أدعو الله لوالدي، ولكن كيف أدعو من لا أعرف كيف هو وما هو، ولا توجد له أي صورة عندي، حتى في الفكر أو الوهم!

تبسم مرة أخرى، وتأخر هذه المرة في الرد، ولم يجبني على سؤالي، بل ختم الحديث وقال:

ـ سوف يأتي اليوم الذي أجيبك فيه على سؤالك هذا إن شاء الله. على كل حال ان لدي مبلغ قد جمعته للذهاب إلى الحج ولكنني سوف أعطيك اياه كي تنقذ به حياة والدك.

---

(١) الأنعام/١٠٣: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾



ـ ولكن..، ولكن يا أستاذ اذا أعطيتني المبلغ فكيف ستذهب إلى الحج؟

ـ أولاً إن المبلغ لا يكفي لمصاريف أداء فريضة الحج، وثانياً إن إنقاذ شخص من المرض والموت أوجب وأحبّ إلى الله تعالى.

أخذتُ المبلغ ووعدتُه بإعادته إليه بعد شفاء والدي، ثم انطلقتُ مسرعاً إلى قريتنا، ولكن..

حين وصولي إلى المنزل فتحتُ الباب وإذا برائحة كريهة قد غمرت مشامي، إنها رائحة الأموات! نعم، دخلتُ غرفة والدي وإذا به ملقى على الأرض قد فارق الحياة، فصرختُ بصوت عالٍ سمعه أهل القرية مما دعاهم إلى التجمع أمام المنزل وفيه، وكان هذا أول يوم من أيام اليتم والضياع والحرمان من الوالدين..

تنفرتُ كثيراً من أهل القرية وبالأخص من أقارب والدي، إذ لم يكن أي شخص منهم يتجرأ على دفع تكاليف الغسل والدفن ومراسيم الفاتحة، مما اضطرني إلى صرف كل المبلغ الذي استقرضته من الأستاذ كمال، وزاد الطين بلّة ان والدي لم يترك أي شيء لي يمكن الاستفادة منه، بل كان عليّ أن أسدد آجار البيت لشهرين!

خرجتُ من القرية بعد ثلاثة أيام، وقررتُ أن لا أعود إليها أبداً، ولكن أين اذهب؟ إلى خالتي؟ كلا، لا أريد العيش معهم بعد ما سمعته منهم من المضايقات والبرود في التعامل معي. إلى الأستاذ كمال؟ كلا، ومن يكون بالنسبة لي، إنه ليس من أقارب أمي أو أبي، كما أن عليّ إرجاع المبلغ الذي استقرضته منه، وسوف لن أعود إليه إلا ومعي دَينه.



ذهبتُ سيراً على الأقدام إلى المدينة المجاورة لقريتنا، وأصبحتُ أجول في شوارعها وأنظر إلى محلاتها وأسواقها وكأني أبحث عن شيء لا أعلم ما هوا نعم، كنتُ كالتائه الحيران الذي لا يعلم ماذا يفعل ولأي وجهة يتوجه، لا مال عندي أسدّ به جوعي، ولا مكان لدي أحتمي به من البرد الذي راح يصل إلى عظامي ليدقّها فترتجف من شدته وألم طرقاته.

لم يكن لديّ توجه إلى الله وارتباط قلبي معه حتى أدعوه وأشكو إليه حالي، بل كنتُ ممتعضاً، وأحدّث نفسي: أين هو الله الذي يقول عنه الأستاذ كمال أن الفطرة تدل عليه، وأن هذه الفطرة تبرز حين المصائب والأزمات وانقطاع سبل النجاة؟

كنتُ أطرق أبواب المحلات في الأسواق، وأسألهم واحداً تلو الآخر إن كان لديهم عمل لي، وكنتُ أقدّم لهم كل التنازلات، بل حتى عرضتُ على بعضهم عدم تقاضي أي أجر مقابل عملي سوى تأمين الطعام والسكن لا غير!

بدأ الظلام ينشر أذياله، وشوارع المدينة تخلو من أناسها، والأسواق من روّادها، حينها أحسستُ بوحشة وتخوّف شديد مما سيؤول إليه مصيري، وكيف سأقضي ليلتي في ظلمة الليل وقساوة البرد التي راحت كل أعضاء بدني ترتجف من شدته.

ازداد سواد الليل أكثر وأكثر، وأحسستُ برجفة شديدة في بدني، لا أعلم هل هي من شدة البرد، أم سببها الخوف من الكلاب التي بدأ يعلو صوت نباحها، والتي أصبحت بطلة للساحة، تصول وتجول دون مزاحم لها.



بحثتُ عن أي شيء في النفايات أو مُلقى على الأرض أسد به ألم الجوع فلم أجده! وبحثتُ عن أي مكان أحتمي فيه من الأنظار ومن الكلاب المخيفة فلم أجده، وبحثتُ عن أي شيء افترشه للنوم فلم أجده!

جلستُ في أحد الزوايا لأبكي قليلاً على حالي، ويبدو أن البكاء أيضاً قد حُرّم علي، إذ بمجرد ان وضعتُ رأسي بين ركبتي أخافني صوت كلب كان قد اقترب مني، وبدأ ينبح وينادي زملائه للقدوم إليه.

لم يكن هناك سبيل لطردها بعدما اجتمعت حولي بشكل حلقة أحاطت بي من كل جانب، ولم تكن تنفع حركات يدي في إبعادها، بل راحت تقترب أكثر وأكثر مني، وتضيّق دائرتها حولي، ويرتفع صراخها ونباحها بشكل مخيف ومرعب.

أحسستُ بانقطاع كل السبل، وتلاشى أملي من كل فرصة نجاة، ولكن في الوقت نفسه تولّد في داخلي إحساس بأن هناك من يستطيع نجاتي، وأن هناك من يراني ويعلم بحالي. نعم، لعلها الفطرة التي قال عنها الأستاذ كمال، قال لي بأنها تدل الإنسان على الله، وهي تبرز لديه لحظة انقطاع كل السبل عنه[1]، إذن يامن تعلّق به قلبي الآن، يا الله نجّني مما أنا فيه.

---

(١) التوحيد للشيخ الصدوق / ص٢٢٥: (يروى أن رجلاً سأل الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: يا بن رسول الله دلني على الله ماهو؟ فقد أكثر علي المجادلون وحيروني، فقال له: يا عبدالله هل ركبت سفينة قط؟ قال: نعم. قال: فهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك؟ قال: نعم.قال: فهل تعلق قلبك هنالك أن شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك؟ فقال: نعم. قال الصادق عليه السلام: فذلك الشئ هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث).



توقفتْ الكلاب عن التقرب مني، والتفتَتْ إلى جهة نباح كلب آخر جاءها من الناحية الأخرى. نظرتُ إليه أيضاً فرأيتُ أن ذلك الكلب ينبح لرؤيته شخصاً كان قد قدم علينا مسرعاً وبيده عصا، وقبل وصوله كان يصيح بصوت عال، وينطق بكلمات ليس لها معنى، وإنما لتخويف الكلاب وإبعادها عني.

استطاع الرجل طرد جميع الكلاب بعصاه، بعدها توجه نحوي وسألني عما أفعله في هذا الوقت المتأخر من الليل.

كان وجهي مصفراً، وكل بدني يرتجف، بل يُسمع حتى صوت أسناني وهي ترتطم بعضها ببعض من شدة الخوف والبرد، فأجبته بصعوبة بالغة عما جرى لي..

قادني إلى بيته، وأعطاني من الغذاء ما أعاد لي قواي، ومن الدفأ ما أزال رعشة البرد عن بدني، فهدأتُ وسكنتُ قليلاً واستسلمتُ إلى نوم عميق لم استيقظ منه إلا بعد ان ايقظني صاحب المنزل في وقت صلاة الصبح، إذ قال لي:

ـ ألا تصلي يا أحمد؟

أجبته بخجل شديد:

ـ كلا.

تركني الرجل ولم يعقب على كلامي بشيء حتى الصباح، إذ قال لي في موقع تناول الإفطار:

ـ تُرى يا أحمد من الذي أنقذك ليلة أمس من الكلاب؟

ـ أنت أنقذتني منها.

ـ بل الله أنقذك منها.



ـ وكيف؟

أجاب الحاج جاسم، وقال:

ـ أنا لم أخرج منذ سنين عدة من بيتي في وقت متأخر من الليل، أما البارحة وقبل ان اخرج إليك بدقائق استيقظتُ على إثر صراخ ابنتي، وحين ذهبتُ إلى غرفتها رأيتها تشكو من ألم شديد في رأسها، وتصرخ وتطلب نقلها فوراً إلى المستشفى، فما كان بوسعي إلا أن أحمل عصاي خوفاً من الكلاب السائبة وأذهب هائماً في شوارع المدينة أبحث عن وسيلة لنقلها، ولكني حين عدتُ إلى البيت وأنتَ معي رأيتُ ابنتي تبتسم في وجهي وتقول: لقد غادر الألم رأسي، ولا أريد الذهاب للمستشفى!

أطرقتُ قليلاً، واستحضرتُ في مخيلتي أحداث البارحة، ثم قلتُ له:

ـ آه، صحيح، أنا لم أدعوك. لم أكن أعرفك حتى أدعوك، ولكني دعوت الله في اللحظة التي أرادت الكلاب أن تقطّعني قطعاً قطعاً.

تذكرتُ كلام الأستاذ كمال في أول مرة رأيته، إذ قال لي حين علم بتركي للصلاة: (كيف تقطع الرابطة مع رب كهذا! يعلم بك حين لا يعلم بك أحد، وينقذك في لحظة لا يستطيع إنقاذك أحد). كان ذلك يوم وجدني وحيداً في بساتين القرية وقد علا صوت بكائي هناك بعد أن طردني والدي من بيته، وحينها لم أكن أعلم إلى أين المسير والمصير.

قررتُ مع نفسي أن لا أترك الصلاة أبداً وفي أي حال من الأحوال، فقلتُ للحاج جاسم:

ـ أعدك أن لا أترك الصلاة بعد هذا اليوم.



ـ وأنا أعدك بالمساعدة لك، وإذا أحببتَ أن تعمل فاعمل عندي، إذ لديّ مكان يناسبك.

ـ أكون شاكراً لك، ولكن يا حاج لدي شرط قبل ذلك.

استغرب الحاج جاسم من تشرّطي عليه وأنا بهذه الحال من الفاقة والحاجة، ولكنه حاول عدم إظهار ذلك، فقال:

ـ قل ما لديك.

ـ أنا أعمل معكم بمقدار يمكّنني من أداء الدين الذي في عنقي، وجمع مقدار من المال أستطيع به العودة إلى الأستاذ كمال..

قاطعني، وقال:

ـ ومن يكون الأستاذ كمال؟

ـ إنه إنسان رائع، سعى في نقلي إلى مدرسته، وساعدني كثيراً، ولا زالت نصائحه تطرق سمعي، وتنير الطريق أمامي في كل حين، نعم، لا بد أن أكمل دراستي على يديه.

لم يتفاعل الحاج جاسم مع كلامي، وقال وكأنه لم يرق له:

ـ على كل حال، الخيار لك، أنت شاب وتتطلع إلى المستقبل، ولا أريد أن أكون مانعا لك في ذلك، ولكن..

ـ ولكن ماذا يا حاج؟

أحسستُ أنّ هناك شيئاً ما أراد قوله، ولكنه تردد فيه ولم ينطق به، ثم قال:

ـ حسناً، سوف تذهب معي اليوم وتباشر في عملك.

باشرتُ في عملي مع الحاج جاسم. لقد كان تحميل البضائع من



السيارات إلى المخزن، وأحياناً من المخزن إليها. في البداية فرحتُ بعملي الجديد، ولكني بعد ساعة، وبعد ما رأيتُ سوء تعامله مع عمّاله الذين كانت آثار الفقر واضحة عليهم تنفرتُ منه.

كان مبيتنا جميعاً في غرفة خربة، جدرانها من الطين وسقفها من الخشب، والفئران تصول وتجول فيها! وكل من يعترض على ذلك يُطرد ولا يُقبل اعتذاره، ولا وساطة أحد لعودته!

كنتُ أنام مبكراً كي لا أشعر بألم الجوع ليلاً، وأزهد كثيراً في وجبة الغداء، وفي كل مرة أتعذر من زملائي عن مرافقتهم، مما اضطرني ذلك إلى الانفصال عنهم وعدم مشاركتهم في الطعام. كل ذلك من أجل الاقتصاد وتوفير المبلغ الذي كنتُ أطمح لجمعه، كل ذلك من أجل سدّ الديون التي في عنقي، ومن أجل المستقبل الذي جعلته في خيالي وفكري، وبين الحين والآخر كانت صورة الأستاذ كمال تراود ذهني، وأتمنى العودة إليه وإلى المدرسة التي هو أستاذ فيها.

أتممتُ على مضض وبصعوبة بالغة ستة أشهر في أعمال تحميل البضائع وتفريغها، وبرغم قلة الأجر الذي كان يعطيني إياه الحاج جاسم، تمكنتُ من جمع المبلغ المطلوب.

قررتُ العودة إلى بيت خالتي وحيث يسكن في المنطقة ذاتها الأستاذ كمال الذي اشتقتُ إليه كثيراً. عزمتُ على السفر وتهيأتُ له وانطلقتُ إلى غايتي التي تحمّلتُ من أجلها العناء الكثير. انطلقتُ وقد ملأتُ ساحة فكري بالصور المشرقة للمدرسة التي تخلفتُ عنها سنة كاملة، وحلّق بي طائر الخيال إلى الجامعة ثم التخرج منها، ولأني



كنت أعشق الهندسة والإبداع فقد تصورتُ نفسي مهندساً ومديراً لمشاريع كبرى و..

حين وصولي هناك توجهتُ أولاً إلى منزل الأستاذ كمال فكانت الفاجعة والصدمة الكبرى!

نعم، كل الآمال التي رسمتها في الخيال قد تحطمت في نظرة واحدة. نعم، في نظرة واحدة، إذ رأيتُ أنقاضاً ولم أر منزلاً! سألتُ المارّة هناك فقال أحدهم وقد ظهرت على وجهه ملامح خوف شديد، ويلتفت يميناً ويساراً:

ـ اذهب سريعاً من هنا، فإن السلطة الحاكمة ورجال الأمن يراقبون كل من يقف على أنقاضهم، ويتهموه بالتعاون معهم!

أمسكتُ به لأفهم ماذا يقوله وإذا به قد اصفرّ وجهه، وازداد اضطراباً، ثم هرب مني سريعاً!

توجهتُ إلى منزل خالتي وحين دخولي بيتها سألتها عن سبب تخريب منزل الأستاذ كمال، فقالت:

ـ في ليلة ظلماء وهم نيام في منزلهم أتت الدولة بمعداتها الثقيلة وهدّمت المنزل على رؤوسهم، نعم، يقول جيرانهم إن أصواتهم قد علت في أول الأمر ثم خمدت تحت الأنقاض. لا أحد يجرأ بالسؤال عنهم، وهل تم استخراجهم من تحت الأنقاض أم لا.

ـ ولماذا فعلوا ذلك بهم؟

ـ إنهم يقولون بأن الأستاذ كمال لديه فعاليات دينية وسياسية.

لقد كان الأستاذ كمال بالنسبة لي مصباح نور قررتُ السير خلفه



ليوصلني إلى الله كما وعدني، ولكنه أخلف وعده، نعم، وعدني بالكثير حين التسجيل في مدرسته التي كان هو مديراً لها، ولكنه..

غرقتُ في البكاء ولم أتمكن من تناول الطعام لأيام عدة، ولم يغادرني الحزن عليه حتى بدأ العام الدراسي الجديد. كنتُ كلما دخلتُ المدرسة ونظرت إلى غرفة مديرها تذكرتُه، بل كلما دخلتها تخنقني العبرة والحسرة على فقدانه، ولم تغادرني هذه الحالة حتى تخرجتُ منها بعد أن أكملتُ دراستي فيها.

وبصعوبة بالغة أنهيتُ الدراسة في الجامعة بين الغربة واليُتم الذي لم يكن يرحم صاحبه. وبفضل الله أصبحت لديّ عائلة أديرها كسائر الناس وبنت اسمها هدى بعدما خرجتُ من بيت خالتي التي أحبتني كثيراً، وكانت تُسيل الدموع حين فراقي لها.

صحيح خرجتُ من ظلمة الفقر، ولكني لم أخرج من ظلمات الجهل وضعف الإيمان بالله، وبقيت أعيش دائماً في حيرة وشكوك تراودني بين الحين والآخر، ولم أعرف ربي إلا بمقدار ما عرّفني به الأستاذ كمال، لأن الشمعة التي أوقدها بيده لتنير دربي انطفأت برحيله، وبقيتُ أنتظر من يوقدها مرة أخرى..



الفصل الثالث

فقدان هدى

لا أعلم كيف أصف حالتي وخفقان قلبي يوم طرق سمعي خبرٌ هزّ كياني كله! وأحدث صدمة كبرى فيه...

أجل، جملة قالها صديقي مُحسن بكل صراحة، ودون أي مراعاة لشعوري، ولا أي مُداراة لإحساسات والد تجاه بنته الوحيدة. قالها مضطرباً بلسان متلكأ وقد طغت على وجهه آثار عجيبة تدل على حدوث أمر ما! نعم، هناك أمر ما يريد النطق به!

كان متردداً كثيراً بالتفوه به، ولكنه وبعد صراع مع نفسه تجرأ عليه، وأباح بما في سريرته، فقال:

ـ أحمد: أما علمتَ أن ابنتك قد فُقدت من بين أحضان أمها؟ تركتُها تصرخ وقد اجتمع الناس حولها، تنادي وما من مجيب، وتطلب العون وما من معين.

آه، ليت السماء أطبقت على الأرض، قد حدث الذي كنتُ أخافه ووقع الفأس على الرأس، إذ كنتُ قد تسلمتُ رسالة قبلها تهددني بخطف ابنتي وقتلها، وقد فعلوا ما قالوا.

حاولتُ تلقي الخبر دون فقد التوازن والسيطرة على النفس، فجلستُ على الأرض قليلاً لعل الصدمة يخف وقعها، ويقل اضطراب عقلي وفكري من أثرها.



انطلقنا إلى موقع الحادث، وحين وصولنا لم أجد شيئاً يدل على حدوث أمر فيه، وقد عاد الناس كل إلى عمله، وانشغل كلٌّ في دنياه!

اتصلتُ بوالدة هدى ولكنها لا تجيب، فغادرتُ الموقع متوجها إلى المنزل، وعند الاقتراب منه سمعتُ الصياح والبكاء قد عم الأرجاء، وراحت النساء تدخل المنزل حتى امتلأ ولم يبق مجالاً للدخول فيه حتى لصاحبه!

بصعوبة بالغة انفردتُ بها في الغرفة، وكان الأشقّ من ذلك تهدئتها والتكلم معها، إذ كانت مع كل كلمة تنطقها تحرقها العبرة، وتسيل منها الدمعة، فلا تتمكن من الاستمرار في الحديث معي. حاولتُ معها مرة وأخرى حتى تمكنتُ من استنطاقها، وعلمتُ منها ما أردتُ عِلمه لأبدأ رحلتي في البحث عن ثمرة فؤادي وثلمة قلبي هدى...

مرت الأيام الأولى بقساوة بالغة، إذ كانت لياليها موحشة بفراق هدى، ونهارها متعب مرهق بالبحث عنها، والذي يزيد الطين بلّة أنني ما وجدتُ حتى الآن رأس خيط أمسك به، ولا ضوء أستنير به للوصول إليها.

ذات يوم عدتُ إلى البيت منهكاً متعَباً، ويبدو أثر الانكسار واضحاً على ملامحي، فأخبرتُ زوجتي بأني سوف أعود غداً إلى الشركة التي انقطعتُ عنها منذ أسبوع، وقلتُ لها متضجراً:

ـ لا فائدة من البقاء في البيت أو التجول في شوارع المدينة دون جدوى. لم أترك طريقاً إلا سلكته، ولا سبيلاً إلا اتخذته. لقد فقدتُ الأمل، ويئستُ من البحث، بل يئستُ من نفسي ومن كل شيء.



أجابتني ليلى وقد أصابها اليأس كما أصابني، ولكن ليس بالدرجة التي لدي، إذ قالتْ لي:

ـ أحمد، ماذا تقول؟ حتى من الله؟

أطرقتُ قليلاً ثم قلتُ لها:

ـ قد دعوت الله مرات عديدة ولكنني لم أجد أي أثر لدعائي. لا أعلم لماذا هكذا يفعل بي ربي؟

ـ ومتى دعوتَ الله، وكيف دعوته؟

ـ الحقيقة أنني لم أدعوه إلا بعد أن يئستُ من غيره، وحتى حين دعوته كان طائر خيالي يذهب إلى فلان وفلان، ويتأمل النجاة منهم. ماذا أفعل؟ أريد أن أدعوه بخشوع فلا استطيع. أريد الشعور بأني أناجي رب عظيم قادر على كل شيء، ولكن فكري سرعان ما تحيط به تساؤلات وشبهات عن ماهية ذلك الرب وقدرته؟ كيف يسمع الدعاء في وقت واحد وآلاف من البشر يطلبوه؟ كيف يمكن أن يكون موجوداً معي في كل مكان ومع غيري في الوقت نفسه؟ وإذا كان يستطيع نجاة ابنتي من أيدي الخاطفين فلماذا لا ينجيها؟!

أعرضتْ ليلى بوجهها عني وهي تقول:

ـ إنك تدعو مع تصوراتك هذه غير الله، وهو ليس كما تتخيله، وكيف تتأمل أن يفتح لك بابه وأنت تطرق باب سواه، وكيف ترجو أن يستجيب لك الدعاء وقلبك متعلق بغيره؟

أحدثت كلمات ليلى أثراً في نفسي، فقررتُ أن أدعو ربي هذه الليلة بخشوع وخضوع، وأن يكون ذلك في منتصف هذه الليلة.

وجاء منتصف الليل...



في ليلة ظلماء موحشة، يخترق ظلامها بين الحين والآخر ضياء الصواعق وبريقها، ويقطع هدوء ليلها صوت رعد السماء، وهطول أمطار غزيرة..

استيقظتُ لأجد ليلى وقد غمرتْ عينيها الدموع، وعلا صوت بكائها، وتأن وتنادي بنتها بصوت حزين يتفجر له الصخر، وينشق له الحجر. أصغيتُ لها فلم أفهم ما كانت تقوله في خلوتها، ولكني التقطتُ بعضا من كلامها إذ كانت تخاطب بنتها وتقول:

ـ يا هدى، يا نور عيني: أأنتِ نائمة أم مستيقظة؟ ألا ترحمين قلب أمك المحترق شوقا إليكِ؟ ألا تردّيها بجواب يطفئ جمرة فؤادها الملتهب حزنا عليك؟ ليت الموت يعدمني الحياة ولا يعدمكِ.

رق قلبي كثيراً لها، وانكسر لشدة أنينها، فرفعتُ يدي وقلتُ مخاطبا ربي: يا رب ألا ترحم قلب هذه الأم المسكينة.

تركتها غارقة في بحر أحزانها ولم أكلّمها، وتوجهتُ بقصد الوضوء والتهيؤ للدعاء والصلاة، أملا في مناجاة ربي بخشوع، ولكن..

ولكن أنّى لي ذلك وقد بدأت وساوس الشيطان تراودني، وتدعوني للعودة إلى فراش النوم مرة أخرى. أنّى لي ذلك وقد تهاجمت سهام اليأس على فكري، وراحت تراودني أفكار عجيبة غريبة بشأن ربي الذي عزمتُ على دعائه وطلب الحاجة منه.

كنتُ أعلم أن ذلك من عمل الشيطان، وأن هزيمتي بالنسبة له فرح وسرور، ولكن لم ينفعني ذلك العلم إذ قد حصل ما أراده، وعدتُ منكسراً مستسلماً. ويبدو أن هذه المرة أيضاً لم تنفعني أجواء ظلام



الليل ومطر السماء، وأصوات الرعد المرعبة التي تبعث على الخشوع لذوي القلوب السليمة، لا لقلب قاسي كالذي لدي.

حاولتُ النهوض والقيام مرة أخرى ولكن هيهات لي ذلك وقد هيمن النعاس على وجودي كله، فاستسلمتُ لنوم عميق لم أستيقظ منه إلالصلاة الصبح التي أديتها ولم أكن راضياً عنها، إذ كانت الأفكار تجرني فيها يميناً وشمالاً، ولم أحس بأي طعم لها، ولا بذرّة خشوع فيها.

حاولتُ الجلوس بعد الصلاة للتفكر في حالي، ولأشكو ربي قساوة قلبي، ولكن حتى هذه الشكوى كانت تخالطها الشكوك والأوهام، وتكدّرها وساوس الشيطان التي تقول لي أن ربي لن يستجيب لي طلبي، ولن يتوجه لي، وفكري كان يحلق خلال الدعاء إلى غير مضامينه ومعناه، وطائر الخيال يذهب بي إلى أماكن مجهولة ليصور لي هدى وهي تُعذَّب تحت أيدي الخاطفين.

قمتُ من مقامي منتفضاً، لم أحقق أي نصر، ولم أخطو أي خطوة نحو القرب من الله، وغرقتُ مرة أخرى في مشاغل الدنيا..

انطلقتُ من المنزل إلى الشركة وكان مسيري يمر بالأسواق والمحلات التي بدأت تفتح أبوابها، وتستقبل زوّارها. كنتُ أسمع في الطريق صوت تلاوة آيات القرآن يأتي من هنا وهناك، وعندما أنظر إلى المحل الذي يصدر منه، أرى صاحبه مشغول الجوارح والجوانح، وغير متوجه بتاتاً لها!

أما أنا فحاولتُ الإنصات لها لعل قلبي القاسي يتدبّر فيها، ويخشع لمعانيها، ولكني لم أجد فيه أي لين، ولا بريق نور يعينني على ذلك،



ويبدو أنه أصبح في قساوته وظلمته كالصخر الأسود المُلقى في ظلمات البحر!

ازددتُ استياءً من حالتي، وتساءلت في نفسي: لماذا هكذا يفعل بي ربي؟ لماذا كلما حاولتُ الاقتراب منه يبتعد عني؟ ألا يحب الله خلقه، وأنا واحد من خلقِه؟

انفتحت أبواب الشكوك على مصراعيها مرة أخرى، وراح الشيطان يلقي بسمومه، ويضع أكداساً من التصورات في مخيلتي، حتى بدأتُ أتساءل: من هو الله؟ وكيف هو؟ وما هو؟ وكيف يتمكن الإنسان أن يعبد رباً لم يره، ولم يعرف عنه شيء؟ وهل هو ملك كملوك التاريخ ولكنه أكبر قوة وسلطاناً منهم، فالملك يعاقب المخالفين بالحبس أو التعذيب، والله يعاقب عباده بالنار، فما الفرق بينهما؟

تساؤلات عديدة ما تمكنتُ الخلاص منها إلا بالفرار منها إذ شغلتُ فكري بأمر آخر حتى وصولي محل عملي!

استقبلني العاملون معي بعبارات التآخي والمواساة، والكل أبدى رغبته في مساعدتي، حتى مدير الشركة قصدني إلى غرفتي ليعزّيني على مصيبتي، ويعرض علي مساعدته، إذ قال لي:

ـ مهندس أحمد، إن كانت الأموال تعيد لك فقيدك فإني حاضر لذلك، وإن كنتَ تحتاج إلى المزيد من الوقت فخذ من الوقت ما تشاء.

شكرته كثيراً على ذلك، ولم أطلب منه شيء، وغرقتُ في عملي مرة أخرى، ولكني كنتُ خلال ذلك أشعر بعدم ارتياح شديد، ولم تذهب صورة هدى عن مخيلتي، فهي تلاحقني أينما ذهبتُ.



أما موضوع قسوة قلبي فصحيح تمكنتُ من تناسيه ساعات، ولكن هل هذا هو الحل لما أعانيه، ومتى كان الفرار نصراً؟ ومتى كان ترك المشكلة هو الحل لها؟ وهل هي مسألة تقبل التماهل والتسويف، وعمري يتناقص ساعة بعد ساعة، ولحظة بعد لحظة؟

كنتُ أعيش في هذه الفترة بين ضياعين: بين ضياع هدى من جهة، وبين ضياع الهدف والغاية من وجودي من جهة أخرى، حتى جاء ذلك اليوم..

نعم، ذات يوم كنتُ منهمكا في عملي، فطرق سمعي نداء ربي الذي أحسستُ عند سماعه أنه يناديني ويعاتبني على تسويفي، أجل، كان الوقت قريب الظهر، وصوت القرآن يعلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ...﴾[1].

توقفتُ عن العمل حين سماعي لهذه الآية وتدبّري فيها. تركتُ كل ما كان في يدي. غادرتُ كل من كان معي وحولي، فاستغرب الجميع مني! ذهبتُ فوراً إلى مكتب الشركة وقدمتُ طلب رخصة الخروج، وأخبرتهم بأن حالي لا يساعدني على البقاء هذا اليوم، ثم انطلقتُ..

انطلقتُ أجول في شوارع المدينة هائماً فيها، وهذه المرة ليس بحثا عن هدى، وإنما بحثاً عن نفسي الضائعة التائهة في تشابكات هذه الدنيا. لا أعلم إلى أي وجهة أتوجه، وبأي شخص أستعين.

ماذا أفعل والخطاب يطرق سمعي ويخرج من أعماق قلبي: أما سمعتَ كلام الله لك؟ ألم يعاتبك ربك قبل قليل أن كفاك التسويف

(١) الحديد/١٦



وقساوة القلب؟ ألم يحن الوقت الذي تخشع فيه لذكر الله وما نزل من الحق؟

دخلتُ إحدى الحدائق العامة، وألقيتُ بنفسي وجبهتي على أرضها! كان كل من في الحديقة مندهشاً مما يشاهده، مستنكراً عملي هذا، فالمتنزه للتنزه والترفيه، لا للعبادة والمناجاة! ولكني لم أبالي بذلك كله، بل دعوت الله بدموع جارية أن يهديني، وأن لا يسلب مني هذه الرغبة في دعائه ومناجاته، و يجعلها بداية الانطلاق والسفر إليه.

كنتُ أعلم أن هذه الحالة سوف لا تستمر، وسرعان ما تضمحل بمجرد الانشغال مرة أخرى، لذا عزمتُ بما لدي من قوة أن أحافظ عليها، ولكن كيف؟ فهذه ليست المرة الأولى التي أعزم فيها، وما الذي حدث من جديد حتى تختلف عزيمتي هذه عما قبلها؟

رفعتُ رأسي من الأرض وأنظار الجميع متوجهة لي، فقمتُ من مقامي أنظر لما حولي، وهممتُ بالانسحاب وعيون الجميع تلاحقني!

في مسيري تساءلتُ مع نفسي: لماذا لا أدعو الله الآن قبل فوات الأوان، وقبل أن تزول حالة الخشوع مني؟ لماذا لا أطلب منه طلبتي قبل أن تسوّد غمامة الشكوك صفحة قلبي[1]؟ جلستُ في زاوية من الطريق أدعوه بدموع جارية أن يارب أريد بنتي المفقودة ونفسي الضائعة!

لأول مرة في حياتي أشعر بأن دموعي صادقة في جريانها حين

---

(١) مستدرك الوسائل/ ج٣/ ص٣٨: (عن الإمام الرضا عليه السلام قال: إن للقلوب إقبالا وإدباراً ونشاطاً وفتوراً، فإذا أقبلت بصرت وفهمت، وإذا أدبرت كلّت وملّت، فخذوها عند إقبالها ونشاطها، واتركوها عند إدبارها وفتورها).



الدعاء، وقلبي غير لاهٍ عن ذكر الله، وفكري ليس منشغلاً بغيره، ولستُ متأملاً لأحد سواه..

تذكرتُ كلمات الأستاذ كمال قبل سنين، وأصبحت تطرق سمعي وتحوم في فكري مرة أخرى، وأحسستُ بالحاجة لأن تُوقد في قلبي من جديد، ولكن من يوقدها؟

في اليوم التالي توجهت إلى محل عملي متأملاً حدوث أمر ما! نعم، لا أعلم ما هو، إلا إني أشعر به وأتشوّق إليه! دخلتُ صالة تسجيل الحضور اليومي في الشركة وهو ما اعتدتُ عليه في كل يوم قبل الذهاب إلى غرفتي، وإذا بشخص ينادي باسمي. اقتربتُ منه وسألته عما يريد، فقال:

ـ هناك شخصٌ ينتظرك في غرفتك، والذي عرّفه لي قال إنه الشيخ مهندس عقيل.

ـ شيخ ومهندس! كيف يكون ذلك؟

ـ لا أعلم، ولكنه مهندس جديد على ما يبدو.

توجهتُ نحو غرفتي وطرقتُ الباب بهدوء ثم فتحتها. لا أحد في الغرفة، ولكن ما إن دخلتها وأغلقتُ الباب حتى سمعتُ نداءاً من الخارج يقول:

ـ مهندس أحمد..

فتحتُ الباب فرأيتُ شخصاً واقفاً خلفه. بادرني بالسلام، ثم قال:

ـ كنتُ أنتظر قدومك لغرفتك.

تأخرتُ في جوابه وبُهرتُ كثيراً حين رؤيته! أحسستُ بهيبة شخصه من وقفته، وحسن خلُقه من نبرة سلامه ونور وجهه. لا أعلم لماذا



شعرتُ بارتياح شديد له من أول نظرة إليه. لا أعلم لماذا انشلّ لساني عن النطق لجوابه، وبقيتُ هكذا حتى استغرب ذلك مني، فتداركتُ الموقف وقلتُ له:

- تفضل.

جلس وعيني تلاحقه وتتمعن في وجهه، وما أن استقر في جلوسه حتى بدأ يعرّف نفسه، إذ قال:

- اسمي عقيل، مهندس عقيل، بالأمس قد صدر أمر انتقالي إليكم، وأرجو من الله أن يوفقني في عملي معكم.

- إني مسرور جداً لقدومك معنا.

ساد الصمت من جديد فليس لدي شيء أقوله، أو حديث أبدأ به، لذا حاولتُ التحدث بأي موضوع، فسألتُه:

- هل كان انتقالك برغبة منك يا أستاذ؟

- نعم، كان انتقالي بسعي مني ورغبة لدي، ولولا مشيئة الله لم يكن ما أردتُ.

أثار كلامه العديد من التساؤلات المكنونة في صدري والتي كثيراً ما كانت تتحول إلى شكوك في ديني حين لا أجد جواباً شافياً لها، لذا لم أتردد في طلب توضيح هذا الأمر منه، فقلتُ له:

- إذا كان الله يشاء، وأنت تشاء، ولا يجري إلا ما يشاء الله، إذن ما الفائدة في سعي الإنسان لتحقيق ما يريد؟ وما رأيك في حديث قرأته عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام يا داود: تريد وأريد ولا يكون إلا ما أريد، فإن أسلمتَ لما



أريد أعطيتك ما تريد، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد)[1].

أطرق قليلاً، وكنتُ انتظر منه جواباً، ولكني فوجئتُ بسؤاله لي، إذ قال:

- هل أنت متزوج؟

- نعم، ولكن ما علاقة ذلك بالموضوع؟

- هل لديك أطفال؟

- نعم، لدي بنت واحدة، ولكنها..

خنقتني العبرة وكادت دموعي تجري لذكراها، ولكني تمالكتُ نفسي ولزمتُ السكوت، فاستأنف كلامه، وقال:

- لو أرادت بنتك في يوم ما أكلة أو لعبة، وطلبتْ منك شرائها، فماذا يكون رد فعلك على طلبها؟

- قد اشتري لها وقد لا أشتري.

إذن بنتك شاءت تلك الأكلة، وسعت في الحصول عليها بطلبها منك وتوسيط والدتها إليك، ولكن مشيئتها هذه لا تكون ولا تتحقق إلا إذا شئت أنت لها ذلك. هل صحيح ما أقول؟

- نعم.

- وهل تتحقق طلبتها لولا أنها تسعى لتحقيقها وتصرّ عليها؟

- كلا.

---

(١) بحار الأنوار / ج٥ / ص١٣



تبسم وقال:

ـ والآن يمكن لك أن تتصور كيف أن مشيئة الإنسان لها دور في تحقق الأمور برغم حاكمية مشيئة الله عليها. أليس كذلك يا أستاذ؟

فكرتُ قليلاً وتأملتُ في جوابه، ثم قلتُ له:

ـ سبحان الله، كان هذا السؤال يدور في ذهني سنين عدة، ولكنك الآن أوضحته لي في دقائق قصيرة، وجُمل زهيدة!

أردت الاستمرار في الحديث واستثمار وجوده معي لطرح مسائل أخرى، ولكنه سبقني وقال:

ـ عذراً يا أستاذ أحمد، هذه الإضبارة الخاصة بي، تحوي كل معلومات أعمالي السابقة مع أمر الانتقال إليكم. لا أعلم إلى من أعطيها؟

طلبتُ منه وضعها على الطاولة التي كانت أمامنا، ثم قال مرة أخرى دون أن يترك لي مجالاً للسؤال منه:

ـ والآن ماذا عليّ فعله، فقد أخبرني مدير الشركة أن عملي سوف يكون معك خلال الأسبوع الأول من مباشرتي؟

ـ وماذا بعده؟

ـ لا أعلم.



الفصل الرابع

حينما يعود الأستاذ

انطلقنا إلى مواقع الأبنية التي بعهدتي وعرّفته بتفاصيل المشروع والأشخاص العاملين فيه، ثم تركته وذهبتُ لإنجاز أعمال أخرى، وحين عودتي إلى مكتبي تناولتُ إضبارته لمطالعتها فكانت المفاجئة الكبرى!

نعم، كان اسمه عقيل واسم والده كمال. في بادئ الأمر شككتُ في أمره ولكني حينما طالعتُ محل ولادته رأيته في نفس المدينة التي كان يسكنها الأستاذ كمال، نعم، إنه ابنه! إنه يحمل نفس صفات والده الذي كان بالنسبة لي شمعة انطفأت في اوائل طريقي المظلم قبل خمسة عشر عاماً!

أجل، لقد عاد لي الأستاذ كمال من جديد..

لم أصدق ما يجري، ولم يهدأ لي حال حتى أقابله وأتحدث معه. تركتُ كل ما في يدي وأسرعتُ خارجاً أبحث عنه. احسستُ أنه الوحيد الذي سوف يضيء لي الطريق مرة أخرى، ويكشف عني الظلمات، نعم، إن الأستاذ كمال قد عاد لي مرة أخرى ليكون بجواري في عالم الدنيا.

كنتُ أبحث وأسأل عنه كل من ألاقيه. كنتُ في حالة اضطراب شديد حتى راودتني مخاوف عدم التمكن من رؤيته مرة أخرى!



وجدته أخيراً، نعم، وجدته غارقاً في عمله وتحت أشعة الشمس المحرقة، بين مجاميع العاملين في المشروع.

توقفتُ في مكان قريب منه أنظر إليه، فرأيته يكلم فلاناً ويوجّه الآخر كيفية أداء عمله، بل كان يمسك أدوات العمل بنفسه، ويرشد العاملين عليها، ويعلمهم كيفية استخدامها، وفي ذلك كله كان وجهه مشرقاً لا يبالي بحرارة الشمس فوقه، ولا يتكبر على الذين دونه، بل ينشر البسمة إلى الواقفين حوله هنا وهناك.

يبدو أنه قد أنهى مهمته حين لاحظته يلتفت يميناً ويساراً وكأنه يبحث عن شخص ما، بعدها تحرك فلحقته وناديته:

ـ مهندس عقيل.

التفتَ نحوي وسبقني في السلام كعادته.

تقدمتُ إليه وعانقته! نعم، لم أتمالك نفسي دون ذلك فاستغرب مني كثيراً بعدما رأى الدمع يسيل من عيني!

لم أعطه فرصة السؤال، إذ قلتُ له:

ـ كيف نجوتَ من الحادثة قبل خمسة عشر عاماً؟ وهل بقي الأستاذ كمال حينها مع أهلك تحت الأنقاض؟

تيقنتُ أنه ابنه، نعم، تيقنتُ ذلك حين سالت قطرات الدمع من عينيه، وأخبرني أنه كان خارج المنزل في وقت تهديمه على أهله، وأنه ذاق مرارة اليتم وفقدان الأهل منذ ذلك اليوم، بل حتى الأقرباء والأصدقاء كانوا لا يجرؤون على مساعدته خوفاً من سلطات الأمن والدولة يومذاك!



حاولتُ إبعاده بأي حديث آخر عن ذكرى هذه الحادثة التي بدأت تمزّق أوصال قلبه المتألم، فقلتُ له:

ـ رأيتُ وكأنك تبحث عن شيء، فهل تنوي الذهاب إلى مكان آخر؟

ـ نعم، كنتُ أنوي الذهاب إلى الموقع الثاني ولكن ليس لدي وسيلة للوصول إليه، كما أنك لم تعرّفني على الأفراد العاملين فيه.

ـ لقد بعثتُ السيارة في مهمة وعلينا الترجل إلى الموقع الثاني فهل توافقني؟

أبدى موافقتهُ على ما طلبته منه، فأمسكتُ بيده وانطلقنا نشق الطريق الذي كان لا يخلو من منعطفات بين الحين والآخر، وخلال ذلك كان الصمت يرافقنا إذ اكتفيتُ خلاله بالنظر إليه حتى كسرتُ ذلك الصمت بسؤالي منه:

ـ عفواً، أستاذ عقيل، هل أنت مهندس أم طالب حوزة؟

لاحظتُ عليه علامات الاستغراب من السؤال، ولكنه لم يتركه دون إجابة، فقال:

ـ إن على كل إنسان مسلم أن يكون على علم وإيمان بالعقائد الإسلامية الحقة، ولا يختص ذلك بطلبة الحوزة فقط. إن إيماننا بالتوحيد والمعاد والنبوة هو أصل في إسلامية كل مسلم، ولهذا أطلقوا عليها أصول الدين، أما المسائل الشرعية الأخرى من قبيل الصلاة والصوم والحج وغيرها فقد أطلقوا عليها اسم فروع الدين، ومن الطبيعي أن يكون الأصل دائما قبل الفرع وأكبر أهمية منه.

ـ ولكني أرى مجتمعنا يهتم بالفروع أكثر من الأصول، وكل بيت



لا يكاد يخلو من رسالة عملية فيه، في الوقت الذي لا تجد فيه أي كتاب يبحث عن العقائد.

تحسّر قليلاً ثم قال:

ـ نعم، صحيح ما تقول، وهذا مما يؤسف له.

ـ ولكن قل لي لماذا سُميت هذه الأصول الثلاثة بالعقائد؟

ـ لأنها مما يجب أن يعقد القلب عليها ولا يكفي التقليد فيها.

تمعنتُ في الطريق الذي سلكناه فرأيته يكاد ينتهي، لذا حاولتُ سريعاً أن أعرض عليه زبدة ما أشكو منه، فقلتُ له:

ـ قل لي بالله عليك، لماذا أدعو الله فلا يستجيب لي، وأتقرّب إليه فلا يقرّبني، وأطرق أبوابه فلا يفتحها لي؟

توقف في سيره والتفت لي، ثم قال:

ـ إذا قصدتَ باب زيد، ولكنك طرقت باب عمر، فهل تتوقع أن يفتح لك زيد الباب؟

ـ كلا.

ـ وإذا ناديت زيداً فهل تتوقع أن يجيبك عمر؟

ـ كلا.

ـ إنك لم تعرف الله وتناديه، ولم تعرف الله وتطرق بابه، ولم تعرف الله وتتقرب إليه، ظناً منك أنه هو، ولكنه ليس هو.

ـ لم أفهم ما تعنيه!

ـ إنك تدعو الله وتتخيل أن وحدانيته كوحدة الواحد منا، أو أنه جسم كأجسامنا، أو صفاته كصفاتنا، أو حياته كحياتنا التي يتحكم بها



الزمان والمكان، أو علمه كعلمنا ولكنه أوسع، وقدرته كقدرتنا ولكنها أكبر.

الله تعالى ليس فقط الأبصار لا تدركه، بل حتى الأوهام في خيالاتها، والأفكار في تصوراتها، لأنه ليس كمثله شيء، وكل تصور يأتي في خيالك فإن الله ليس كمثله، بل منزّه عنه، وهو أكبر من أن يصفه الواصفون. أما قرأت في دعاء عرفة: (يا مَنْ لا يَعْلَمُ كَيْفَ هُوَ إلاّ هُوَ، يا مَنْ لا يَعْلَمُ ما هُوَ إلاّ هُوَ)[1]

إنك بهذه التصورات وغيرها مما ترد في ذهنك تكون قد دعوت غير الله، وطرقتَ باب سواه، لأنه سبحانه منزّه عن كل ما في خيالك.

ـ إذن يا أستاذ عقيل أنت تدعوني إلى معرفة الله أولاً.

ـ لستُ أنا الذي ادعوك، بل جميع الأنبياء والأوصياء دعوا إلى معرفة الله تعالى، فهذا رسول الله ﷺ يأتيه أعرابي فيسأله عن غرائب العلم، فيجيبه ﷺ بقوله: ما صنعتَ في رأس العلم حتى تسأل عن غرائبه؟ حينها يتساءل الأعرابي عن رأس العلم ما هو، فيجيبه الرسول ﷺ أنه معرفة الله حق معرفته[2].

لم أقطع كلامه، ولم أسأل منه رغم حيرتي العظمى عن أي معرفة يقصدها، وكيف أعرف الله، وهل يمكن للإنسان ذلك، وعلى كل حال لزمتُ الصمت و أعطيته فرصة الاستمرار في حديثه، ويبدو أنه قد قرأ الحيرة على صفحة وجهي، فقال:

---

(١) مفاتيح الجنان/ دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام

(٢) بحار الأنوار/ للعلامة المجلسي/ ج٣ / ص٢٦٩



ـ بالطبع أقصد من المعرفة هنا معرفة صفاته وأفعاله، لا معرفة ذاته وماهيته التي لا يعلمها حتى خاتم الأنبياء، بل لا يتمكن أحد من الأولين والآخرين الوصول لها أو التقرب منها.

ـ سبحان الله، هذا جواب ما كان يدور في ذهني الآن!

تبسم وقال:

ـ أما علي عليه السلام فيقول: (أول الدين معرفته)[1]، ويعني بها معرفة الله. وأما الصادق عليه السلام فيأتيه رجل ويقول له: إنّنا ندعو فلا يُستجاب لنا، فيعلّل له الإمام ذلك بقوله: إنّكم تدعون من لا تعرفونه[2].

وصلنا الموقع وليتنا لم نصله، إذ انقطع حديثنا بعد أن رأينا شخص يقدم علينا مسرعاً، وحين وقوفه أمامنا أخبرني بإصابة أحد العمال وأن إصابته خطيرة تستوجب نقله فوراً.

اتصلتُ بإدارة المشروع وطلبتُ منهم إرسال سيارة لنا بأسرع وقت، ولم يمض وقت طويل حتى جاءت وتم نقل المصاب إلى مستشفى المدينة بعد أن بعثتُ اثنين برفقته.

تجولنا بين منشآت المشروع وعرّفته بها مع كادرها العامل فيها، واستمرت جولتنا حدود الساعتين أردتُ الانصراف بعدها، ولكنه اعترض علي ولم يوافقني الانصراف! وقال:

---

(١) نهج البلاغة / خطبة رقم ١: (... أول الدين معرفته، و كمال معرفته التصديق به، و كمال التصديق به توحيده، ...)

(٢) بحار الأنوار/ج٩٠/ ص٣٦٨: (عن موسى ابن جعفر عليه السلام قال: قال قوم للصادق عليه السلام: ندعو فلا يستجاب لنا، قال: لأنكم تدعون من لا تعرفونه).



ـ إنك لم تؤدِّ جميع واجباتك في جولتك، وبقي أمر نسيته، أو تجاهلتَ عنه.

نظرتُ إليه مستغرباً من كلامه، فأردف قائلاً:

ـ قبل ساعتين أصيب أحد أفرادك إثر حادث وقع له في أثناء عمله، ولكنك لم تبحث عن علة ذلك الحادث وسببه، ألم يكن من واجبك منع وقوع مثله في الأفراد الذين تحت مسؤوليتك؟

كان من جهلي وحماقتي أني لم ألتزم الصمت أمام سؤاله، بل بدأتُ أتحدث معه وكأني أنا المؤمن الحق، وهو المخطئ في إيمانه، فقلتُ له:

ـ إن على الإنسان المؤمن أن يؤمن بالقضاء والقدر، ويرضى به لأنه من الله تعالى، وما وقع هذا اليوم من مصيبة على العامل إنما كانت مكتوبة عليه، وقد حدثت بقضاء الله وقدره، ولم يكن بُد من وقوعها، ولا ينفع الحذر ولا يجني الاحتياط لتجنبها. إذن فما الفائدة من البحث عن أسبابها؟

كان ينصت بدقة لكلامي، وحين توقفي بقي ينتظر إن كان لدي شيء آخر، ثم قال:

ـ إن فهمك للقضاء والقدر غير صحيح، وبهذا الفهم إنما تشل حركة الإنسان المؤمن في صنع الحياة والتكامل نحو الأفضل. متى قال الله تعالى هذا المعنى؟ ومتى دعا إليه الأنبياء؟!

ـ ولكني قرأتُ في أحد الكتب أن رجلاً من أهل العراق دخل على أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أخبرنا عن خروجنا إلى أهل الشام أبقضاء



من الله وقدر؟ فقال له أمير المؤمنين: (أجل يا شيخ، فوالله ما علوتم تلعة ولا هبطتم بطن وادٍ إلا بقضاء من الله وقدره)[1].

- صحيح يا أستاذ أحمد، أن أمير المؤمنين أقر القضاء والقدر، ولكن ليس بالمعنى الذي أنت تفهمه.

اشتدت حماستي أكثر في الحوار حول هذا الموضوع، لأني كنتُ معتقداً بصحة ما في ذهني، لذا دفعني جهلي لمحاججته في آيات من القرآن، فقلتُ له:

- إن كلامك غير صحيح، وإلا فما رأيك في الآية التي تقول: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[2].

رغم انفعالي واحمرار وجهي أثناء الحديث معه ولكني لاحظته يبتسم ويقول:

- إني لم أعرض لك حتى الآن المعنى الذي أعتقده في القضاء والقدر حتى تقول عنه أنه صحيح أو غير صحيح!

توقفتُ قليلاً وراجعت شريط الحوار بيننا، حينها علمتُ أن

---

(١) عيون أخبار الرضا [للشيخ الصدوق] / ج٢ / ص١٣٥: (وقال الرضا عليه السلام في روايته عن آبائه عن على بن الحسين بن علي عليه السلام: دخل رجل من أهل العراق على أمير المؤمنين فقال اخبرني عن خروجنا إلى أهل الشام أبقضاء من الله وقدره، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام أجل يا شيخ فو الله ما علوتم تلعه ولا هبطتم بطن واد إلا بقضاء من الله وقدره فقال الشيخ: عند الله احتسب عنائي يا أمير المؤمنين فقال عليه السلام: مهلا يا شيخ لعلك تظن قضاء حتما وقدرا لازما...).

(٢) الحديد / ٢٢



الانفعال قد جرّني كثيراً إلى ما لا ينبغي قوله، لأني لم أسمع رأيه حتى الآن فكيف حكمتُ على خطأه؟!

اقترح عليّ تأجيل الحديث في هذا الموضوع إلى وقت آخر، وطلب مني الذهاب معا لتقصّي أسباب الحادث وكيفية وقوعه على العامل المسكين الذي لم يأتي للمشروع إلا لأجل لقمة العيش له ولعائلته.

عدتُ بعد نهاية الدوام من الشركة إلى البيت، وأثناء عودتي لم يفارق ذهني الذي حدث هذا اليوم من التعرف على مهندس عقيل الذي لم يكن إلا نسخة طبق الأصل من الأستاذ كمال. أيكون هو سبب بعثه الله لهدايتي؟ لعله كذلك.

ما إن وصلتُ البيت ودخلته حتى انطوت صفحة هذه الأفكار لتحل محلها صفحة جديدة! نعم، صفحة هدى الضائعة وأمها المنكوبة التي استقبلتني بالبكاء كعادتها، وسألتني عما فعلته هذا اليوم في البحث عن بنتها.

أردتُ الانتفاض أمامها والقول لها أن لا فائدة من البحث، ولا بد لها أن ترضى بقضاء الله وقدره وتسلّم له، ولكني تذكرتُ الحوار مع مهندس عقيل الذي لم ينته بعد. لزمتُ الصمت وبقيتُ متحيراً، هل ينفع السعي في البحث عنها؟ وهل يناقض هذا البحث إيماني بقضاء الله وقدره أم لا؟

حقيقة كنتُ أعيش في حيرة وظلمات فوقها ظلمات، لا أعلم كيف السبيل للخروج منها. عليّ الآن أن أجيب زوجتي، فبماذا أجيبها؟ قلت لها:



ـ اليوم تعرفتُ على شخص جديد قدم إلى شركتنا، ويسمونه الشيخ عقيل، سوف أذهب إليه عصراً فلعله يستطيع حل مشكلتنا.

ـ وماذا يفعل رجل معمم في شركتكم؟!

ـ إنه مهندس، ولا يرتدي العمامة كما تتصورين. لعله يكون قد درس في أحد الحوزات العلمية، لا أعلم. آه، نسيتُ أن أقول لكِ بأنه ابن الأستاذ كمال الذي تحدثتُ لك عنه من قبل.

ـ ولكن ما علاقته بالخاطفين، وهل لديه معلومات عن بنتي؟ قل لي بالله عليك. هل يمكن لي الذهاب معك، فإني أريد رؤيته.

يبدو أني فتحتُ باباً لا يمكن غلقه، لذا قلتُ لها:

ـ إنه لا يعلم بأصل الموضوع ولا بالخاطفين، ولكنه إنسان تبدو عليه ملامح العلم والإيمان، ولعله يرشدني إلى طريق أسلكه. لا أعلم إن كان يستطيع أم لا، لا أعلم.

ترددتُ في الاتصال به، ولكن حاجتي الملحّة دعتني لطلب اللقاء به والتواعد معه في الحديقة العامة عصراً. وفي الموعد المقرر جرى اللقاء.

شرحتُ له المصيبة التي حلّت بي وبوالدة هدى، وأوضحتُ له تفاصيلها، فكان خلال ذلك يردد بين الحين والآخر قول (لا حول ولا قوة إلا بالله)، واستمر الحديث حتى وجدتُ الفرصة المناسبة للسؤال منه، فقلتُ له:

ـ أرجوك يا أخ عقيل أن تخبرني، هل ينفعني البحث عن بنتي المفقودة؟ ألم تكن المصيبة قد وقعت علينا بقضاء وقدر من الله تعالى، وعلينا الصبر عليها ليس إلا، لأن النتيجة سوف لا تكون إلا كما يقدّر



الله لها أن تكون، وهي جارية علينا سواء بحثنا وسعينا أم لم نفعل ذلك؟

أطرق قليلاً ثم توجه لي، وقال:

ـ إن الله تعالى خلق الكون وخلق معه أنظمة وقوانين، منها قانون العلّية الذي يقول أن لكل معلول علة، أو بعبارة أخرى أن لكل حادثة سبب، وحينما تكتمل شرائط ذلك السبب وترتفع موانعه تحدث الحادثة. ولا تستغرب حينما أقول لك أن هذا القانون هو الأساس الذي يسير عليه قضاء الله وقدره.

ـ عجيب جداً، أنا أعتقد أن قانون العلية يناقض مسألة القضاء والقدر، فكيف يمكن أن يكون أساساً له؟!

ـ إن الله تعالى قدّر في علمه الأزلي وحكمته اللامتناهية جميع الأسباب ومسبَّباتها مما نعلمها ولا نعلمها، ومما هي ظاهرة لنا أو مخفية علينا، وجعل بقدر كل سبب نتيجة يؤدي لها، وقد لا تتحقق بعض هذه النتائج إلا باجتماع أسباب متعددة، وهذا هو ما نسميه القدَر. وحينما يقضي الله ما قدّر لعباده وينفذ أمره فيهم طبقاً للقانون والنظم الذي وضعه لهم نسميه قضاء.

كان لدي غموض في فهم المعنى الذي يريده، لذا طلبتُ منه التوضيح أكثر، فقال:

ـ يمكن تشبيه مسألة القضاء والقدر بالمثال التالي: لو كتب مَلِك أحد البلدان لائحة قوانين كان ضمنها عقوبات على بعض الأعمال، وثواب على أعمال أخرى، وبيّن في هذه اللائحة وبصورة تفصيلية ودقيقة كيف أن مقدار ونوع وشدة الجزاء والثواب يكون متعلقاً وتابعاً



للفعل الذي يفعله أي شخص يسكن في مملكته، فمن يفعل كذا يحصل على كذا، ومن يفعل كذا يحصل على كذا. هنا نقول أن الملك قدّر الجزاء لأفراد مملكته على ضوء أفعالهم، وهذا ما نسميه التقدير أو القدر.

توقف هنيئة، ثم قال:

- ولعلك تسألني الآن عن القضاء ما هو.

- نعم هو كذلك، وعين ما أريده منك الآن.

تبسم كعادته، وقال:

- حينما يفعل أحد أفراد المملكة فعلاً معيناً، ويأتي جنود الملك وينفذون أحكام اللائحة عليه، فإنما هم بذلك قضوا أمر الملك وحكمه فيه، وهو ما نسميه القضاء.

- إذن القدر أولاً ثم القضاء. ولكن التسمية المعروفة لدينا هي القضاء والقدر، وليس القدر والقضاء؟

- صحيح أن الشائع بين الناس هو تسمية القضاء والقدر، بينما الأصح هو التسمية الثانية، وهذا الأمر ليس مهم جداً، كما إني لاحظت في العديد من كتب علمائنا يقدمون القدر على القضاء مرة ويؤخرونه أخرى.

على كل حال، في المثال الذي ذكرتُه لك، هل خرج المَلِك عن سلطانه وسيطرته على أفراد مملكته حينما تم تطبيق قوانين اللائحة وتنفيذها؟

- كلا، لأن الملك هو الذي كتب قوانين اللائحة، ويستطيع في أي وقت إلغائها أو تغييرها أو تعطيلها، كما إنه يستطيع إصدار أوامر



خاصة تختلف عن أوامر اللائحة الكلية بالنسبة إلى فئة معينة قد يرى فيهم خصوصية تميزهم عن غيرهم.

ـ نعم، هو كذلك، وإذا فعل أحد أفراد المملكة فعلا أوصله طبق قوانين اللائحة إلى نتيجة معينة، فهل يمكن لأحد أن يقول أن الملك أجبره على هذه النتيجة، ولم يكن للفرد دور في وقوعها أو منعها؟

ـ كلا، هذا القول غير صحيح.

ـ إذن يمكن لأي فرد من أفراد هذه المملكة أن يرقى إلى أعلى المستويات إذا عرف قوانين اللائحة وتفاصيلها التي توصله لتلك المقامات ثم عمل بها، كما يمكن له ولغيره أيضاً التدني إلى أدنى المستويات. أليس كذلك؟

ـ نعم، هو كذلك.

ساد الصمت قليلاً بعد ان توقف عن الكلام منتظراً أي سؤال أو تعليق مني، ولأنني لم أبادره بشيء، قال:

ـ هكذا يمكن فهم مسألة القدر والقضاء، فالله تعالى ذِكره وضع وقدّر بعلمه وحكمته الحوادث الجارية والتي تجري في هذا الكون طبقاً لعللها الواقعة، ثم قضى وأبرم تحققها بإذنه بعد اكتمال شرائطها ورفع موانعها. وقد قرأتُ منذ وقت جملة للسيد الطباطبائي رحمة الله عليه في تفسيره الميزان وحفظتها عنه، إذ كان يقول فيها: (فانبساط القدر والقضاء في العالم هو سريان العلية التامة والمعلولية في العالم بتمامه وجميعه)[1].

(١) تفسير الميزان [للسيد الطباطبائي] / ج١ / ص٥٥



بقيتُ مذهولاً من المعنى الجديد الذي ذكره عن القضاء والقدر، فهو لم يطرق سمعي قبل هذا الوقت، ولم يكن من السهولة قبوله، لذا سألته:

ـ وهل ينسجم هذا المعنى مع آيات القرآن الكريم والأحاديث الواردة عن الرسول وأهل بيته عليهم السلام؟

ـ نعم، كمال الانسجام معها.

ـ إذن أرجوك أن تذكر لي بعضا منها.

ـ أبدأ بنفس الحديث الذي ذكرته أنت صباح هذا اليوم. نعم، أنت ذكرتَ المقطع الأول منه ولم تكمله، فالحديث يقول: (دخل رجل من أهل العراق على أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أخبرنا عن خروجنا إلى أهل الشام أبقضاء من الله وقدر؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «أجل يا شيخ! فوالله ما علوتم تلعة ولا هبطتم بطن واد إلاّ بقضاء من الله وقدر. فقال الشيخ: عند الله أحتسب عنائي يا أمير المؤمنين! فقال: مهلاً يا شيخ! لعلّك تظنّ قضاءاً حتماً وقدراً لازماً، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والأمر والنهي والزجر، ولسقط معنى الوعد والوعيد، ولم تكن على مسيء لائمة، ولا لمحسن محمدة، ولكان المحسن أولى باللائمة من المذنب، والمذنب أولى بالإحسان من المحسن، تلك مقالة عبدة الأوثان وخصماء الرحمن، وقدريّة هذه الأمّة ومجوسها، يا شيخ! إنّ الله عزّ وجلّ كلّف تخييراً، ونهى تحذيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعص مغلوباً، ولم يُطع



مكرهاً، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظنّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار)[1].

فهنا الرواية توحي إلى أن الشيخ بعد أن سمع من أمير المؤمنين أن خروجهم إلى الشام لم يكن إلا بقضاء من الله وقدره، فهِم أن ذلك كان حتمي الوقوع، ولا يمكن التخلف عنه، وهم مجبرون عليه، فتداركه أمير المؤمنين بنفي هذا المعنى عن ذهنه، وقال له لو كان معنى القضاء والقدر كما تظن لبطل التكليف والثواب والعقاب، ولتساوى المحسن والمسيء. ثم بين له شناعة فهمه هذا بقوله له أن ذلك هو المعنى الذي يقول به عبدة الأوثان، وخصماء الرحمن، ومجوس هذه الأمة!

ـ وهل ينسجم المعنى الذي تقوله مع الآية التي ذكرتها لك صباح هذا اليوم؟

ـ إن الآية الكريمة التي ذكرتها تقول: ما من مصيبة في الأرض ولا في الأنفس ألا وهي مكتوبة مع أسبابها وعللها في الكتاب قبل حدوثها. وتؤكد هذا المعنى الآية الأخرى التي تقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[2]. فالآية هنا تؤكد قانون القدر والقضاء، وأن المصائب لها علل، وعللها أفعال الناس، كما أنك تجد نقطة لطيفة أخرى فيها وهي أنه مع وجود هذا القانون فإن الأمر لم يخرج من قدرة الله ومشيئته لقوله تعالى ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾.

(١) عيون أخبار الرضا [للشيخ الصدوق] / ج٢ / ص١٣٥ : (وقال الرضا عليه السلام في روايته عن آبائه....)
(٢) الشورى / ٣٠



تذكرتُ آيات أخرى شغلت فكري، إذ كان يبدو من ظاهرها التناقض فيما بينها، ورأيتُ من المناسب عرضها عليه، فقلتُ له:

ـ أما تلوتَ الآية التي تقول: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[1]، وأعمالنا شيء من الأشياء؟ إذن فما دورنا نحن؟ ولماذا يحاسبنا الله ويتوعدنا بالنار على أعمالنا السيئة إذا كان هو خالقها، وليس لمشيئتنا أثر فيها؟ ألم تمتلئ بطون الكتب بالكثير من الأحاديث التي تؤكد حقيقة أن لا مؤثر في الوجود غير الله، إذن فأين يكون موقعنا من هذه المعادلة الغامضة؟ ثم ما رأيك في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ..﴾[2].. فمرة ينسب المصيبة إلى الله، وأخرى ينسبها إلى الإنسان، بينما في آية أخرى يقول كل من عند الله[3]، أليس في ذلك تناقض بين الآيات؟

ـ إن توضيح هذا الأمر يتطلب ذهناً صافياً غير مُتعب، فهل أنت كذلك يا أحمد؟

ـ نعم، أنا كذلك، وهذا الأمر مهم جداً بالنسبة لي.

طلب مني الاستراحة قليلاً والذهاب إلى أحد محلات الحديقة العامة لتناول شيء منها. وافقته على ذلك، ووجدتُ في هذا الأمر

---

(١) الزمر/ ٦٢

(٢) النساء / ٧٩: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

(٣) النساء / ٧٨: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.



فرصة لتنظيم المعلومات التي تلقيتها منه، ولتذكر الأسئلة التي كثيراً ما كانت تملأ ذهني وتشغله.

تناولنا عصير الفواكه ولم أعطه فرصة الاستراحة أكثر من ذلك، إذ قلتُ له:

ـ لدي الكثير من الأسئلة تحوم الآن في ذهني، ولكني أنتظر إكمالك لشرح الموضوع ثم أبدأ بها.

ـ حسناً، ولعلك سوف تجد جوابها خلال الشرح دون السؤال عنها. والآن اسمح لي أن أرفع عنك شبهة التناقضات في آيات القرآن التي تحيرتَ فيها من خلال مثال عرفي.

ـ نعم.

ـ لو أعطيتك سيارة كهربائية، وكانت هذه السيارة لا تتحرك إلا بواسطة جهاز سيطرة يتحكم بها عن بعد، وكان هذا الجهاز بيدي أستطيع من خلاله إعطاء السيارة قوة الدفع والحركة أو توقيفها في أي وقت أشاء. أما مِقْودها فأعطيتك إياه. حددتُ لك الهدف الذي إن وصلتَ إليه تنال سعادة الأبد. أوضحتُ لك طريق الوصول إليه، ولم أكتف بذلك، بل وضعتُ لك علامات تدلك الطريق إلى الهدف، وأوقفتُ لك على طول المسير وفي كل تقاطع من يرشدك إليه. ثم انطلقتَ وأنا أمدّك في كل لحظة بالقوة التي تتحرك بها، والآن أسألك فأجبني.

ـ نعم، تفضل.

ـ لو تحركتَ وانحرفتَ يميناً وشمالاً حيث المقود بيدك، ولم تتبع



توصياتي لك في سلوك الطريق المستقيم، وأصابك مكروه ولم تصل الهدف والغاية، فمن يكون المقصّر في هذه الحالة؟

ـ بالطبع يكون تقصير الذي بيده مِقود السيارة، إذ انحرف باختياره عن الطريق المستقيم.

ـ إذن كل ما يصيبك هنا من مكروه فمن نفسك. وكذلك الإنسان بالنسبة إلى ربه، وهو مصداق قوله تعالى ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾.

ـ نعم، هذا فهمته، ولكن..

ـ أرجوك اسمح لي، ولو تحركتَ وسلكت الطريق المستقيم بالقوة التي أنا أمدك بها، واستنرتَ بتوصياتي وبالعلامات التي وضعتها لك على طول الطريق، واستهديتَ بالأشخاص الذين أنا كلفتهم لهدايتك عند كل شبهة وحيرة، فإن أصابتك حسنة نتيجة ذلك أليس من حقي أن أقول لك أن هذه الحسنة من عندي؟

ـ بالتأكيد، يمكن لك ذلك، لأني لا أملك شيئاً، فالسيارة من عندك، والحركة من عندك، والهداية من عندك.

ـ وكذلك الإنسان بالنسبة إلى ربه، فالله خلقنا وأعطانا قوة الحركة والاختيار، وحدد لنا الهدف والغاية من خلقنا، ودلّنا طريق الوصول إليه، وزوّدنا بالعقل والفطرة التي تدلنا عليه، ولم يكتفِ بذلك، بل أرسل لنا ١٢٤ ألف نبي وبعددهم من الأوصياء واقفين على طول المسير، لأجل أن لا نضل الطريق. فهنا أليس من حق ربنا أن يقول ﴿مَآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾؟



ـ نعم، من حقّه تعالى.

ـ وإذا كان نفس الإنسان وما يملكه من قوى وعقل، وما يسير به من طريق، وما يسير نحوه من هدف كلها لله، ألا يصح القول ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾؟

بقيتُ مذهولاً صامتاً، فبأي كلام أنطق، وأي حديث بعد هذا الحديث أقول، وبدأتُ أفكر في السنين التي مضت من عمري والشيطان يثير عليّ هذه الشبهات، ويوسوس لي أن في الدين تناقض فاترك الدين، وأن في القرآن اختلاف فاترك القرآن. علمتُ الآن معنى أن الإنسان مخيّر في أفعاله بصورة لا يستغني ولا يستقل بها عن الله. علمتُ الآن معنى (لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين)[1].

طلبتُ منه أن يتركني وحيدا مدة خمس دقائق للتفكير، فاستقبل ذلك مني ونهض ليترجل ماشيا بين أشجار الحديقة وخضارها.

قمتُ له إكراماً حين عودته، وأخبرته بالنتيجة التي توصلتُ إليها من خلال حواري معه، وقلتُ له:

ـ لقد أوقدتَ لي شمعة وسط ظلمات الحيرة. لقد وهبتَ لي طريقة جديدة في الحياة. مِن اليوم سوف يتغير تعاملي مع الأمور كلها، سوف

---

(١) شرح أصول الكافي/ ج ٨/ ص٥٤: (عن زيد بن عمير ابن معاوية الشامي قال: دخلت على علي بن موسى الرضا ﷺ بمرو فقلت: يا ابن رسول الله روي لنا عن الصادق جعفر بن محمد ﷺ أنه قال: «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين» ما معناه؟ قال: من زعم أن الله تعالى يفعل أفعالنا ثم يعذبنا عليها فقد قال بالجبر، ومن زعم أن الله تعالى فوض أفعال الخلق والرزق إلى حججه ﷺ فقد قال بالتفويض، القائل بالجبر كافر والقائل بالتفويض مشرك، فقلت: يا ابن رسول الله فما أمر بين أمرين فقال: وجود السبيل إلى إتيان ما أمروا به وترك ما نهوا عنه).



أبحث عن هدى بعزيمة جديدة متوكلاً على الله الذي بيده كل شيء، ولا يخرج عن مشيئته شيء.

ازددتُ أملاً في رؤية هدى وشوقاً إليها، وأصبحتْ صورتها لا تفارق مخيلتي، وابتسامتها لا تغادر فكري.



الفصل الخامس

لا زلتَ في بحر النعم

عدتُ إلى المنزل لأعتذر من ليلى عن كل ما جرى من البحث والجدال بيني وبينها. كم كانت تدعوني للحركة والسعي إلى سُبل للوصول إلى هدى، وكانت تقول لعل في واحد منها نجاتها، ولكني في كل مرة أجيبها ان لو يشاء الله لأعادها لنا، ولا فائدة من كل ما نفعله. آه، كم كنتُ جاهلاً وأحمقاً في أجوبتي لها.

وصلتُ المنزل وأنا أحمل تقديراً كبيراً لها. طرقتُ الباب وحين فُتح أردتُ مبادرتها بابتسامة مني ولكني فوجئتُ بشحوبة وجهها، واضطرابها الشديد، فقلتُ لها:

ـ أراكِ شاحبة الوجه فهل حدث أمر جديد؟

أجابت وقد ابتلّ وجهها المصفر بالدموع:

ـ نعم، قبل دقائق اتصل المجرمون وطلبوا مبلغاً من المال مقابل الإفراج عن هدى.

ـ وكم كان المبلغ الذي طلبوه؟

ـ طلبوا عشرين مليون دينار، نعم، فقط عشرين.

قالت ذلك وعيونها تحدّق في وجهي، تتأمل قبولي، وتحاول



بلهجة كلامها أن تبيّن لي بأن هذا المبلغ ليس له قيمة مقابل حياة هدى.

كنتُ أقدّر مشاعرها كأم تريد حياة بنتها بأي ثمن، لذا أجبتها:

ـ نعم يا عزيزتي، ان هدى أغلى بكثير من المبلغ الذي ذكرتيه، ولكن هل بيّنوا لكِ أين وكيف يتم دفعه، وكيف نستلم بنتنا؟

ـ نعم، نلقي المبلغ بعد لفه بخرقة حمراء في ثاني حاوية نفايات عند مدخل الحديقة العامة، وبعد يوم واحد سوف تأتي بنتنا، نعم، هكذا قالوا.

أطرقتُ قليلاً، ثم قلتُ لها:

ـ ولكن من أين سوف نأتي بالمبلغ الذي طلبوه؟

يبدو أنها لم تفكر في كيفية تأمين المبلغ حتى الآن، لذا ترددتْ قليلاً في كلامها، ثم قالتْ:

ـ سوف أبيع كل ما لديّ من ذهب وملابس ولا أبقي إلا ثوب واحد من أجل حياة هدى!

ـ ولكن ذلك لا يكفي.

ـ إذن نبيع أثاث البيت أيضاً.

ـ إن كل ما ذكرتيه لا يعادل ربع المبلغ المطلوب.

جرت دموعها مرة أخرى وهي لا تعلم بماذا تجيب. أحسستُ أنها تريد قول شيء ما، ولكنها كانت مترددة فيه، ولم يطل ترددها إذ قالت:

ـ نبيع بيتنا، وهل بيتك أعز لديك من هدى؟



طلبتُ منها أن تمهلني خمس دقائق للتفكير في المسألة. كنتُ غير مطمئن بعودة هدى حتى مع دفع المبلغ كله، فمن يضمن ذلك؟ إنهم مجرمون لا يملكون ذرة وفاء بالوعود، وقد يأخذوه ولا يعيدون لنا بنتنا خوفاً من ان يُكشف أمرهم أو مكانهم.

ولكن... لو رفضتُ بيع البيت والأثاث، وحدث مكروه لهدى فسوف تبقى ملامة في نفسي حتى الممات، أما أمها فسوف تنظر لي نظرة من كان السبب في قتل بنتها وعدمها الحياة. إذن لا خيار غير خيار القبول.

قلتُ لها:

ـ نعم، نبيع البيت والأثاث.

كانت المهلة قليلة جداً لعرض المنزل والأثاث وبيعها واستلام مبلغها، لذا قبلتُ بسعر زهيد، وتمت هذه العملية في اليوم التالي حيث لم يبق لنا بيت نأوي إليه، ولا شيء نتأمل بيعه. لقد كانت بداية الفقر، بل هو اليوم الأول من الفقر، إذ لم يكتمل المبلغ إلا بالمبالغ النقدية البسيطة التي كانت لدى زوجتي.

أحسستُ بضائقة في نفسي، وأني بحاجة لمن يهوّن علي ما وقع بي، ويسلي خاطري على مصيبتي، والأعظم من ذلك أن عليّ تقديم كل ما جمعته خلال أيام عمري إلى أناس هم أتفه خلق الله وأحقرهم!

اتصلتُ بالمهندس عقيل، وأخبرته أني بحاجة إلى اللقاء معه في عصر اليوم الثاني من المهلة.

تم اللقاء، ومن سوء أدبي معه أني بادرته بالاعتراض على ما حل بي، إذ قلتُ له:



ـ لماذا يفعل بي ربي هكذا، لماذا يسلبني ما أجهدتُ نفسي عمراً في جمعه، ولماذا يعطيه إلى هؤلاء السفلة الذين لا يستحقون شربة ماء. أمن العدل أو الحكمة ذلك؟

استغرب كثيراً من كلامي إذ لم يكن يعلم بالموضوع الذي أتكلم عنه، لذا طلب مني التوضيح، وبعد علمه بما حدث أطرق قليلاً ثم قال:

ـ قل لي بالله عليك، لو أن شخصاً وهبك التصرف في منزل فخم لا ينقصه شيء من الأثاث التي تحتاجها لك ولعائلتك، وأضاف عليه سيارة حديثة تركبها، وأمّن لك كل سبل الراحة والرفاه مجاناً دون أي مقابل، ثم وبعد سنين من العيش في نعمته أخذ منك جهاز التلفاز، فقط جهاز التلفاز، فهل تعترض عليه وتحسبه ظلماً لك وأنت لا زلت غارقاً في نعمته؟

ـ ليس من الأدب ذلك.

ـ إذن ليس من الأدب ان تعترض على ربك وأنت لا زلت غارقاً في بحر نِعَمه.

ـ أنا أقول لك ذهب بيتي وكل مالي الذي جمعته بجهدي وعَرَقي، ولم يبق لي أي شيء، فعن أي بحر تتحدث؟

ـ عن بحر نعم الله. قل لي من أعطاك هذا الجهد؟ ومن وهبك العقل الذي فكرتَ به والعينين التي طالعتَ بهما فأصبحتَ مهندساً، وكسبتَ من مهنتك هذه بيتاً ومالا؟ ومن أعطاك اليدين التي تأكل بهما وتحرّك وتحمل بهما الأشياء؟ ومن أعطاك اللسان الذي تتحدث به مع الآخرين وتبين لهم ما تريد؟ ومن جعل لك الرجلان والقدمان اللتان



تنتقل بهما من مكان لآخر دون منّة أحد عليك؟ ومن أعطاك العينان اللتان ترى بهما جمال الطبيعة، وتميّز بهما النور من الظلام؟ ومن أعطاك العافية التي لو سُلبتْ منك يوماً واحداً لضاقت بك الدنيا وما فيها، ولفديتَ من أجلها ما لديك وما ليس لديك؟ ومن أوجد لك الماء والهواء الذي لو منعك إياه لحظات لعُدمت الحياة؟

ـ الله، هو الله الذي وهبني كل ذلك.

ـ إذن أنت لا زلت غارقاً في كل هذه النعم وهو لم يسلبها منك.

لزمتُ الصمت إذ ليس لدي جواب على كلامه، فاستأنف وقال:

ـ الله الذي وهبك كل ذلك هل أخذ منك أجراً، أو ينتظر منك منفعة تعود إليه؟

ـ لقد كلفني بأمور عبادية ليس إلا.

ـ حتى هذه الأمور العبادية فإن الله ليس بحاجة لها، ولا ينتظر منك منفعة تعود إليه، بل هي لك أيضاً كي ترتقي بروحك إلى مقامات تنال بها جنة الخلد، وتسعد بها في حياة الأبد.

يبدو أنه قد قرأ في وجهي عدم القناعة بما يقول، لذا بادرني بمثال يقرّب به المعنى، فقال:

ـ لو أن هذا الشخص الذي فرضنا أنه وهبك المنزل والسيارة والأثاث مجاناً أوجب عليك إكمال دراستك والجد فيها، فهل يمكن أن تقول أن هذا الشخص ينتظر منفعة منك وهو غني عنك وعن غيرك، أم أن هذا الوجوب هو لأجلك أنت كي ترقى في مجتمعك وتؤمن مستقبلك.

أطرقتُ قليلاً لأفكر واجد الرابطة بين المثال الذي ذكره لي وبين



علاقتي مع الله، فوجدتُ المطابقة بينهما، وعلمتُ أني أنا المقصود وأن الواهب هو الله، وان الله لم يطالبني إلا بما يعود عليّ نفعه، ولم يأخذ مني إلا نعمة واحدة من بين آلاف النعم التي لا زلتُ غارقاً فيها.

اصفرّ وجهي خجَلا، ولا أعلم أهو من الله ربي، أم من الأستاذ عقيل، حينها نطق لساني وقال:

ـ صحيح ما تقول يا أستاذ، لقد اتضح المطلب لي الآن.

ساد الصمت بعد هذا الاعتراف مني، حينها تذكرتُ الأمر الذي أتيتُ من أجله إلى هنا، فقلتُ له:

لم تدلّني على الطريق الذي أسلكه في التعامل مع هؤلاء الظلمة، هل أعطيهم المبلغ الذي يطلبوه، أم ماذا أفعل؟

أطرق قليلاً ولم يجبني، فكررتُ عليه السؤال مرة أخرى:

ـ أخي عقيل، إني أمام مشكلة عظمى وخيار خطير، أسعفني في أي شيء تقوله.

ـ نعم، أعلم ذلك، أمهلني ساعة حتى نقرر بعدها ماذا علينا فعله.

ـ وماذا تفعل في هذه الساعة؟

ـ اعلم يا أستاذ أحمد أن كثيراً من المشكلات المستعصية قد مررتُ بها خلال حياتي، ولكني تجاوزتها بسلام والحمد لله..

ـ وكيف تجاوزتها؟

ـ بالتفكر والتوكل على الله، كنتُ أجلس وأكتب جميع الخيارات التي ممكن أن تكون حلاً لمشكلتي، ثم أبدأ وأفكر في عاقبة كل خيار منها، وما هي النتائج المتوقعة منه، ثم أبدأ أسقّط هذه الخيارات



واحداً تلو الآخر حتى يبقى الأمثل والأفضل منها، حينها أستخير الله فيه وأتوكل عليه، وأعزم على تحمل جميع المشاق والآلام التي قد ألاقيها أثناء سلوكي هذا الطريق، ويكون زادي فيه علمي بأن الله يسمع ويرى وهو على كل شيء قدير.

تباحثنا ساعة حتى توصلنا إلى القرار الأخير وهو أن نلقي المبلغ في المكان الذي حددوه لنا مع مراقبة المكان ومتابعة من يأخذه. كان الاتفاق أن ينفّذ الأمر هذه الليلة حيث ألقي أنا المبلغ في الحاوية، أما هو فيختفي في مكان يراقب منه الأوضاع، وحتى لا يُشك في أمرنا أذهب أنا إلى البيت وبعد ساعة أعود إليه.

أردنا الافتراق والذهاب ولكنني أثناء توديعه أحسستُ بخوف واضطراب من نتائج خطتنا، فقلتُ له:

ـ هل تظن أن الخطة سوف تكون مثمرة؟

أجاب وقال:

ـ الله أعلم بنتيجتها، ألا يكفيك أن تعلم يا أحمد بأن الله لا يخفى عليه سواد غسق داج، ولا ليل ساج. ألا يكفيك أن تعلم بأن الله لا يعزب عن علمه عدد قطر الماء، ولا نجوم السّماء، ولا عدد ذرات الرّيح في الهواء، بل هو العالم بما هو كائن ويكون قبل أنْ يكون، فلماذا هذا الخوف والاضطراب؟

سحبتُ يدي منه، وقلتُ له:

ـ إذا كان الله يعلم بما كان قبل ان يكون، فهل يعلم أيضاً بمصيري أيكون إلى النار أم إلى الجنة؟

ـ نعم، هو كذلك.



استنكرتُ كلامه، وقلتُ له:

ـ إذا كان في علم الله اني اذهب إلى النار فما الفائدة من طاعتي وعبادتي وتوبتي وأمثال ذلك؟ وهل يخطئ الله في علمه؟

ـ الله عالم السر وأخفى، وعالم بما يكون في الكون قبل أن يكون، وهو لا يخطأ في علمه أبداً، ومع ذلك فإن علمه هذا لا يكون إجباراً لك على دخول الجنة أو النار.

ـ لا يمكن لي تصور أو تصديق كلامك هذا. كيف لا يكون إجباراً لي.

أطرق قليلاً ولم ينطق بشيء، فظننتُ بعدم وجود جواب لديه، ولكنه رفع رأسه من جديد، وقال:

ـ المريض الذي يذهب إلى الطبيب، وحين فحصه والتدقيق في حالته يعلم الطبيب أنه بعد ثلاثة أيام سوف يموت، فهل يحق للمريض هنا أن يتهم طبيبه بأنه كان السبب في موته، وأنه أجبره على هذا المصير والنهاية لأنه علم به؟

لم أجبه، واكتفيتُ بالنظر إليه، ثم افترقنا على أمل اللقاء...

أجرينا الاتفاق كما هو وفي الموعد المحدد، بعدها توجهتُ إلى المنزل مسرعاً وأنا في أشد القلق على زوجتي التي تركتها وحيدة مريضة وقد ارتفعت الحمى لديها. كانت خطواتي المسرعة مصحوبة بالتفكير بها وبأي حال سوف أجدها.

وصلتُ المنزل ودخلتُ فيه فناديتها باسمها: ليلى، ليلى، أين أنت وكيف حالك.

لم أسمع جواباً فكررتُ النداء وأنا أجول في المنزل. لم أجدها في



غرفتها التي كانت نائمة فيها، ولكني فوجئتُ حينما لفت نظري باب غرفة هدى الذي كان مفتوحاً وما عهدته هكذا! دخلتُ الغرفة لأجد ليلى ساقطة على الأرض وقد اعتنقت صورة بنتها!

أسرعتُ إليها وحملتها لأضعها فوق السرير الذي كان قريباً منها، فسمعتها تتكلم بصوت خافت لم أفهم منه شيء. كررتْ كلامها معي حينما استقرت على سرير بنتها، فأصغيتُ لها وإذا بها تسألني عما فعلتُه مع الأستاذ عقيل، وهل ألقينا المبلغ في المكان الذي أخبرَتنا به!

أجبتُها عما سألتني عنه، ثم قالت والدموع تجري من عينيها:

ـ ألم تتفق معه أن تعود إليه وتراقبا معاً من يأخذ المبلغ من الحاوية؟

أجبتها وقد تألمتُ كثيراً لحالها:

ـ نعم، ولكن كيف بكِ؟ ومن يبقى معكِ؟

ـ لا عليكَ يا أحمد، اذهب فإن معي ربي يسمع أنيني ويرى حالي، وهو أرحم الراحمين.

أغلقتْ عينيها بعد أن أمسكت بصورة هدى ووضعتها على صدرها، ثم قالت:

ـ إذا كنتَ تريد حياتي فاذهب فإن حياتي بدون هدى لا معنى لها.

اخترتُ العودة حسبما طلبته مني ليلى، وصحيح أني غادرتها ولكنها لم تغادر فكري، وبقيتْ كلماتها ترن في أذني وخصوصاً قولها: (فإن معي ربي يسمع أنيني ويرى حالي). إنها عين كلمات الأستاذ عقيل حينما قال لي بأن زاده في شق طريق المصاعب



والمصائب هو علمه بأن الله يسمع ويرى، وإنه على كل شيء قدير. تُرى ما السر في هذه المقالة؟ هل إن الذي يعتقد بذلك تُفتح له أبواب الفرج، و تنحلّ أمامه جميع العُقد؟

تساءلتُ مع نفسي: وأنا؟ ألا أعتقد بأن الله يسمع ويرى؟ ألا أعتقد بأن الله يعلم ما في نفسي وخاطري ويعلم سري وسر أعدائي وما يبطنون لي، إذن لماذا لا يفرّج عني ربي؟

وصلتُ إلى مكان الحاوية وكان الظلام شديداً جداً ولم أكد أرى يدي من شدة ظلمته، إذ لا قمر أستنير به، ولا ضوء أي مصدر آخر أستدل به. لم أجد المكان الذي اختفى عنده الأستاذ عقيل إلا بعد وقت وجهد كبير، ولكن!

ولكن الأستاذ عقيل غير موجود، نعم ولا أي أثر له!

اتصلتُ بهاتفه النقال، ولكن لا جواب، ذهبتُ إلى الحاوية فوجدتُ المبلغ لم يزل فيها!

هممتُ بأخذ المبلغ من الحاوية ولكني تذكرتُ هدى وأمها، وحضرا في مخيلتي وكأنهما يمنعاني من هذا الفعل.

حيرة شديدة في ظلام دامس، وتردد عظيم بين أخذ المبلغ والعودة إلى ليلى وقد تركتها في أسوأ حالة، وبين الانتظار ومراقبة الحاوية، وما انتهى ترددي هذا إلا بعد إحساسي بأن يداً قد وُضعت على كتفي، فالتفتُ فوراً لأرى شخصاً مقنّع بالسواد بشكل مخيف ومرعب، ولم تظهر منه إلا عينيه!

قال لي:

ـ هل تريد عودة ابنتك إليك؟



أجبته وكل بدني يرتعش منه:

ـ نعم وأين هي؟

لم يجبني، وأخذ المبلغ من الحاوية ثم مسك بيدي وقال: اتبعني.

تبعته وما كان لي خيار غير ذلك، إذ جاء معه شخص مقنّع آخر وقد مسكا بيدي، وأغلقا عيني بقطعة قماش، فلم أعد أرى حتى ظلام الليل.

لم أفقد الأمل في تلك اللحظات، وقلتُ في نفسي لعلهم يوفون بوعدهم ويعطوني هدى وينتهي كل شيء، ألم يأخذوا المبلغ الذي طلبوه؟

كانت هذه الأفكار تراودني خلال مسيري معهم وتجعلني بين اليأس والأمل.

ركبنا سيارة وسارت بنا مسافة حتى وصلنا إلى المكان الذي كانوا يقصدوه، حينها قادوني من غرفة إلى أخرى، وكنت أشعر بذلك من خلال فتح الباب وغلقه لكل غرفة، وكذلك من خلال الحديث فيما بينهم والذي كنت أسمعه صوت بلا صورة.

كان آخر المطاف أن ألقوا بي مقيّد اليدين في غرفة تبدو صغيرة، ولم يرفعوا الغطاء عن عينيّ فناديتُ حين سمعتُ صوت الباب وقد اغلقه:

ـ إذن أين ابنتي؟ ألم أعطكم المبلغ كله؟ لا أقَل ارفعوا الغطاء عن وجهي.

أجابني أحدهم من بعيد:

ـ آه، نسيتُ قطعة القماش التي على عينيك، ولكن لا يهم ذلك،



سوف يأتيك شخص غيري، وهذا الشخص قَتْلك عنده أهون من قتل ذبابة أو بعوضة، حينها لا تحتاج إلى رفع قطعة القماش بعدها!

قال هذا وعلا صوت ضحكاته وذهب. أما أنا فتيقنتُ أن موتي قريب، وأن انتقالي إلى عالم ما بعد الموت ليس ببعيد، إن فرصتي في هذه الحياة الدنيا على وشك الخلاص... الويل لي.

في هذه اللحظات الأخيرة من حياتي، ماذا بوسعي فِعله وأنا لم أعرف ربي حتى الآن من هو! كنتُ أريد أن أكون محبّاً وعاشقاً له، ويكون حالي كحال العاشقين الذين قرأتُ عنهم، حينها سوف لا يعذبني ربي لأن المحبوب لا يعذب بالنار من يحبه، ولكن أنىّ لي ذلك وأنا لازلتُ في أول الطريق.

الويل لي خسرتُ ورب الكعبة، خسرتُ ابنتي وزوجتي وآخرتي. ليت الأستاذ عقيل معي فينقذني مما أنا فيه، أو لا أقل يرشدني إلى ما يمكنني فعله في الساعات الأخيرة من عمري. الويل لك يا أحمد، قد أفنيتَ عمرك في الجهل والغفلة حتى حان وقت الرحيل.

أحسستُ بوجود شخص ما في الغرفة، فتوجهتُ نحو أحد جدرانها ولكني اصطدمتُ به ولم أجد شيئاً. ناديتُ بصوت عال:

ـ هل هناك أحد يسمعني؟ هل أنت في الغرفة أم خارجها؟ ألا تفتح القيود عن يدي، ألا ترفع الغطاء عن عيني؟

أحسستُ باقتراب الشخص مني حتى بدأت انفاسه تخالط أنفاسي. لم ينطق بشيء، وبدأ يفتح قيود يدي ثم قطعة القماش من أمام عيني لألقي أول نظرة عليه. عرفته رغم ظلام الليل الدامس، نعم، عرفته، وكيف لي أن لا أعرفه.



هل أنا أعيش في عالم الحقيقة أم الوهم والخيال؟ عانقني وقد جرت الدموع من عيني لفرحة لقاءه، وأحسستُ بطمأنينة حين رؤيته، إذ كان شوقي إليه عظيماً وكأني فارقته منذ سنين وسنين، لا ساعات عدة!

عانقني مرة أخرى وقال أول كلمة له بعد الفراق واللقاء:

ـ الحمد لله على سلامتك يا أحمد.

ـ وأنا أحمد الله على سلامتك يا أستاذ.

نعم، كان الأستاذ عقيل الذي تمنيتُ منذ لحظات أن يكون معي، والذي كان لقائه بالنسبة لي لا يعوّض بأثمان، ولا يُعادَل بأوزان ولو كان ملأ الأرض ذهباً، فما قيمة ذلك كله وأنا في الساعات الأخيرة من عمري..

دار الحديث بيننا، وسألته وسألني عمّا حدث، ثم أخبرته بأني تركتُ زوجتي في البيت تقاوم المرض وحدها وما من معين لها غير الله، ثم سألته:

ـ هل سمعتَ ما قاله مأمور المجرمين الذي أتى بي إلى هذه الغرفة؟

ـ نعم سمعتُ مقالته، ولكن أعلم أن الأمر ليس بيده، بل الأمر كله لله.

ـ وهل تظن أنهم سوف يقتلوننا؟

أجابني بكل هدوء، ولم يكن يبدو عليه ملامح الخوف أو الاضطراب، ولا التضجر مما وصل إليه أمره:



ـ قد يكون ذلك وقد لا يكون، ولا تجري الأمور إلا بما شاء الله أن تكون.

ـ ولكني تركتُ زوجتي وحدها دون مال ولا طعام، وأنت تعلم أن كل أموالي وأموالها قد سُلّمت إلى هؤلاء المجرمين، فمن يرزقها ويطعمها وهي مريضة في فراشها؟

تأسف كثيراً وكادت دمعته تنزل من عينيه، ثم رفع رأسه، وقال:

ـ الكثير منا قد يعلم بأن الرزاق هو الله ليس سواه، وأن الرزق والأموال والعافية والحياة والموت كلها بيده تعالى، ولكنه في الوقت نفسه فإن الكثير منا ليس له اطمئنان قلبي بهذا العلم، ولا يرتّب أثراً عليه في حياته اليومية..

قاطعته، وقلتُ له:

ـ وأنا أيضاً لدي هذا العلم، ولكني الآن قلق جداً على مصيرها، وأشعر أن الأبواب مغلقة جميعاً أمامها.

ـ يكفي أنك لم تقصّر في حقها، وعملتَ الذي بوسعك من أجلها، والباقي على الله تعالى، إسمع يا أحمد هذه الحادثة التي قرأتها في أحد الكتب، فلعلها تزيل عنك هذا القلق، وتجعل ثقة قلبك بالله دون سواه:

كان حاتم الأصم رجلاً كثير العيال وله أولاد ذكور وبنات، ولم يكن يملك حبة طعام واحدة، فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدثون عن الحج، فدخل شوق الحج في قلبه، وذهب إلى أولاده وجلس معهم يحدثهم، ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه في هذا العام حاجاً ويدعو لكم؟ فقال له أولاده وزوجته: أنت على



هذه الحالة لا تملك شيئاً ونحن على ما ترى من الفاقة، فكيف تريد الحج، وكانت له بنت صغيرة، فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له يذهب حيث شاء فإنه أكّال للرزق وليس برزّاق، فقالوا: صدقتِ والله، يا أبانا انطلق حيث أحببت.

قام حاتم من وقته وساعته وخرج مسافراً، وأصبح الناس يدخلون على أهل بيته ويوبخونهم ويقولون لهم: كيف أذنتم له وأنتم على هذه الحالة؟ حتى جعلوا أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون لها: لو سكتِّ ما تكلمنا، فرفعت الصبية رأسها إلى السماء بالدعاء لها ولأبيها، ثم قالت: إلهي لا تخيب أبي ولا تخجلني مع أهلي والناس.

فبينما هم على تلك الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيداً فانقطع من عسكره، وأصابه عطش شديد، فاجتاز بيت الرجل الصالح حاتم الأصم، واستسقى منهم ماءً بعد أن قرع بابهم، فقالوا له: من أنت؟ قال: الأمير ببابكم يستسقيكم، فرفعت زوجة حاتم طرفها إلى السماء، وقالت: إلهي وسيدي سبحانك بتنا البارحة جياعاً واليوم يقف الأمير ببابنا يستسقينا، ثم أنها أخذت كوزاً وملأته ماءً، وقالت: أعذرونا، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه واستطاب ذلك الماء، فقال: هل هذا الدار لأمير؟

فقالوا: لا، بل لعبد من عباد الله الصالحين يُعرف بحاتم الأصم، قال الأمير: لقد سمعتُ به، فقال وزيره: لقد سمعت يا سيدي أنه البارحة سافر للحج ولم يخلّف لعياله شيئاً، وأُخبرتُ بأنهم البارحة باتوا جياعاً، فقال الأمير: ونحن قد ثقلنا عليهم اليوم أيضاً وليس هذا من المروءة أن يثقل مثلنا مثلهم.



غادر الأمير ووزيره منزلهم ولم ينقضي النهار حتى عاد الأخير بمال كثير أعطاه لهم وهو يتعذّر منهم!

فلما رأت الصغيرة ذلك بكت بكاءً شديداً، فقالوا لها: ما هذا البكاء؟ إنما يجب أن تفرحي فإن الله تعالى قد وسّع علينا.

فقالت والله إنما أبكي على لطف ربنا، كيف بتنا جياعاً فنظر إلينا الكريم الخالق نظرة واحدة فأغنانا بعد فقرنا، اللهم انظر إلى أبينا ودبّره بأحسن التدبير.

وأما ما كان من أمر أبيها فإنه لما خرج محرماً، ولحق بالقوم، توجع أمير الركب فطلب طبيباً فلم يجد، فقال: هل هنا من عبد صالح؟ فدلّوه على حاتم الأصم، ولما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفي الأمير، فأمر له بما يركب ويأكل وبما يشرب، حينها نام تلك الليلة متفكراً في أمر عياله، فقيل له في منامه: يا حاتم، من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه، ثم أُخبر بما كان من أمر عياله، فأكثر من الثناء على الله تعالى، ولما قضى الحج ورجع، تلقته بنته الصغيرة فعانقها وبكى، ثم قال: صغار قوم كبار قوم آخرين، إن الله لا ينظر إلى أكبركم، ولكن ينظر إلى أعرفكم به، فعليكم بمعرفته والاتكال عليه فإنه من يتوكل على الله كفاه.

أصغيت إلى القصة، وأدمعتْ عيني لها أسفاً على نفسي أنني لم أعرف ربي بعد هذا العمر الطويل كما عرفته هذه الصغيرة وتيقنتْ به.

ساد الصمت من جديد، حتى مسح الدموع عني بيديه، فقلتُ له:

ـ أريد أن أكون عارفاً بالله كهذه الصغيرة.

لم يعلق على كلامي هذا بشيء، فسألته:



- ألا تخاف من الموت؟

أجابني، ويبدو عليه الصدق في كلامه:

- إذا كنتَ تعشق شخصاً وأخبروك أنك سوف تلاقيه بعد ساعات قليلة، فبأي حال سوف تكون؟

- أطير فرحا لقرب لقائه.

- وأنا الآن أطير فرحاً للقاء ربي. ما هي إلا ساعات وأقدم عليه، وماذا تظن أن يفعل المعشوق بعاشقه وهو ملك جبار كريم رحيم.

- ولكني لا أشعر بهذا العشق تجاه ربي مع أني أرغب في أن أكون عاشقاً له.

- من الطبيعي أن لا تكون كذلك لأنك لم تعرف ربك من هو، ولم تعرف وتتيقن بصفاته وأفعاله حتى تحبه وتعشقه.

يبدو أنه قد قرأ على صفحة وجهي عدم الفهم للمعنى الذي ذكره، لذا استأنف كلامه، وقال:

- لو أخبرتك أننا ذاهبون لزيارة شخص اسمه زيد، وسكتُّ ولم أذكر لك أي شيء آخر عنه، فهل تتشوق للقائه أو تحبه وتعشقه؟

- كلا.

- ولو ذكرتُ لك صفات زيد الحميدة كلها، ووصفتُ لك جماله وكماله، وأنه غاية في الجود والكرم، ويؤثر غيره على نفسه، ولا يرد محتاجاً، ويبتسم في وجه كل من يلاقيه، وأن كلامه عذب تقطر الحكمة منه، وأنه عادل في حكمه، ولا يضيع الحق عنده، وغيرها من الصفات الحسنة الأخرى..



توقف قليلاً ونظر لي ثم سألني بقوله:

ـ هل إن قلبك سوف يحب ذلك الشخص، ويتعلق به قبل أن تراه؟

ـ نعم، شخص كهذا كيف لا يكون محبوباً لدى الجميع.

ـ ولو قلتُ لك نحن ذاهبون الآن اليه، فهل سوف تتشوق لرؤيته واللقاء به؟

ـ نعم، بالتأكيد.

ـ ما الذي غير معادلة الحب في قلبك لذلك الشخص؟

ـ معرفته.

توقف عن الحديث ليرى مدى وضوح كلامه عندي، ثم قال:

ـ أرجو أن يكون قد اتضح المطلب لديك.

تحسرتُ كثيراً وقلتُ مخاطباً نفسي وبصوت يسمعه:

ـ الويل لك يا أحمد. في الوقت الضائع من حياتك علمتَ وتيقنتَ أن عليك أولاً معرفة الله..

قاطعني وقال:

ـ لقد تحدثتُ لك في الأيام الأولى من لقائي بك عن هذا الموضوع، وقلتُ لك أن أول الدين معرفته، وأن المعرفة بالله مقدمة إلى حبه، وحبه مقدمة للإخلاص إليه، وبالإخلاص يرتقي الإنسان إلى مراتب الكمال. وخلاصة جوابي لك عن سبب خوفك واضطرابك من الموت ولقاء الله أنك لم تحبه لأنك لم تعرفه حتى الآن، وإن عرفته فقد عرفته بالعلم فقط دون الاطمئنان القلبي به، كما أنك أيضاً خائف



من لقائه لأنك قد ظلمتَ نفسك بكثرة الذنوب، فتخاف بعد الموت عدله وحسابه، اليس كذلك يا أحمد؟

احمر وجهي خجلاً، ولكنني أحسستُ أن هذه المرة ليس من الأستاذ عقيل، بل من ربي الكريم!

قلتُ له:

ـ أقرّ لك بذلك، وإني كما تقول.



الفصل السادس

دروس في السجن

شاء الله لنا البقاء في الحجز أيام أخر في غرفة صغيرة لا نرى فيها إلا جدراناً أربعة ونافذة صغيرة جداً في وسط الباب. إن البقاء هنا هو عين ما تمنيته وطلبته من الله، إذ كنتُ أحصي فيه الدقائق وأخاف فوتها، وأسعى فيها لصنع نفسي والرقي بها إلى مراتب الكمال التي تؤهلني للقاء ربي.

طلبتُ من الأستاذ عقيل أن يختصر لي الطريق ويفهرس لي خلاصة مطالب التوحيد كي أعلم أين أنا منها، فقال:

ـ إن العديد من مطالب التوحيد قد ذكرتها لك سابقاً، وفي الكثير منها قدضربتُ لك الأمثال.

أجبته وقلتُ له:

ـ صحيح ذلك، ولكني أردتُ..

قاطعني، ويبدو أنه فهم ما أردته منه، فقال:

ـ الكثير من الناس يستغرب حينما يسمع أن هناك مجلدات ضخمة تبحث عن التوحيد، لأنه يظن أن التوحيد هو الاعتقاد بأن الله واحد ليس إلا، وهذا المعنى يمكن جمعه في سطر واحد، إذن ماذا يوجد في تلك المجلدات؟! هكذا يظن ويتساءل أغلب الناس.



على كل حال، توحيد الله ينقسم إلى توحيد الذات أولاً، وتوحيد الصفات ثانياً، وتوحيد الخالقية ثالثاً، وتوحيد الربوبية رابعاً، وتوحيد العبادة خامساً.

ـ وهل يمكن أن تذكر لي ما هو المختصر عن كل قسم من هذه الأقسام؟

ـ أما توحيد الذات فله مرتبتان: الأولى أن تعتقد بأن الله سبحانه وتعالى في ذاته بسيط غير مركب من أجزاء.

ـ وإذا كان مركب من أجزاء فماذا يعني؟

ـ إن كل مركب يحتاج في وجوده إلى وجود أجزائه، فمثلاً الماء المركب من الأوكسجين والهيدروجين يفقد وجوده لو فقد أحد جزئيه، إذن الماء محتاج في وجوده إلى وجود أجزائه. أما الله تعالى فمنزّه عن هذا الفقر والاحتياج إلى الغير، وهو لا ينقسم لا في وجود ولا في عقل أو وهم[1].

ـ هذه المرتبة الأولى، فما المرتبة الثانية من توحيد الذات؟

ـ المرتبة الثانية من توحيد الذات أن تعتقد بأن الله تعالى واحد لا شريك له ولا نظير، وأن وحدانيته ليست كوحدة الأشياء التي حولنا.

لم أفهم ما يقول، فسألته مستغرباً:

ـ أنا أقول إن هذا القلم واحد والله أيضاً واحد، فما الفرق بينهما في الوحدانية؟

---

(١) روضة الواعظين/ج١/ ص٥١: في بعض من كلام لأمير المؤمنين ﷺ مع إعرابي أنه قال له (... يعنى به إنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم كذلك ربنا).



قال:

ـ صحيح أن هذا القلم واحد ولكنه في الوقت نفسه يمكن أن يكون له ثان وثالث ورابع، أي يقبل التعدد، والله واحد أيضاً ولكنه لا يمكن أن يكون له ثان، فهو لا يقبل التعدد، ولذلك سميت وحدة القلم وحدة عددية ووحدة الله وحدة غير عددية.

ـ ألا يمكن لشخص أن يصنع قلماً بمواصفات خاصة ليس لها نظير في كل الدنيا، وبهذه الحالة لا يكون له ثانٍ أيضاً.

ـ صحيح ما تقول، الآن ليس له ثان، ولكنه في المستقبل يمكن أن يكون له ثان وثالث ورابع، إذن قَبِل التعدد، فوحدته عددية، أما وحدة الله فهي ليست عددية، بل قاهرة على جميع الوحدات الأخرى[1]، وهي لا تقبل التعدد لا في الحاضر ولا في المستقبل، بل لا يمكن تصور تعددها حتى في الخيال.

ـ إن هذا المعنى غير معروف لدى أغلب الناس، ولم أقرأ عنه في رواياتنا الواردة.

ـ بل هو وارد في القرآن وفي الروايات أيضاً، فقد قرأتُ مثلاً في أحد الكتب[2] أن (أعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين أتقول: إن الله واحد؟ قال: فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: دعوه فإن الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم! ثم قال: يا أعرابي إن القول في أن الله واحد على أربعة

(١) يوسف/٣٩: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾.
(٢) شرح اصول الكافي/ج٧/ ص٣٥٦



أقسام: فوجهان منها لا يجوزان على الله عز وجل، ووجهان يثبتان فيه، فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز، لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنه كفر من قال: إنه ثالث ثلاثة؟...).

ـ ولماذا لا يمكن التصور في الخيال أن الله له ثاني؟

ـ لأنه غير محدود بحد كباقي الأشياء، فهذا القلم مثلاً حينما ينتهي حده يبدأ الثاني، والثاني حينما ينتهي حده يبدأ الثالث وهكذا، أما الله تعالى فليس له حد ينتهي به حتى تصل النوبة للثاني أن يبدأ.

فهمتُ منه المعنى الذي لم أعرفه من قبل، فقلتُ له:

ـ ألهذا السبب كلما وردت كلمة الواحد لله في القرآن تبعها بالقهار وأمثالها؟

ـ نعم، أنت لا تجد كلمة الواحد في القرآن ينسبها لله إلا وكان معها صفة القهر والغلبة، وذلك ليميزها ويجعلها القاهرة لجميع الوحدات الأخرى.

سألته عن كلمة (الأحد) الواردة في سورة الإخلاص، فقال:

ـ أنت لا تقول في كلامك عقيل أحد، ولا هذا القلم أحد، بل تقول عقيل واحد والقلم واحد، لأن الأحد تستخدم في المواضع التي تنفي فيها وجود حتى الواحد، كما في قولك (ما جاء أحد)، أليس كذلك؟

ـ صحيح.

ـ إذن الأحدية تختص بالله تعالى كما في قوله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ



أَحَـدٌ﴾، وهي تنفي عنه حتى الواحدية العددية الموجودة في سائر خلقه، وتنزهه عنها.

كان كل فكري سارحاً مع الحديث في وحدانية الله، ولم يخرج منه إلا بعد أن سمعنا صراخ بنت صغيرة تستغيث وتنادي بصوت يسمعه الجميع: اتركوني، لا تفعلوا بي ذلك، أنا لم أفعل أي شيء..

كاد قلبي يسكت ويتوقف نبضه حين سمعتُ صوتها، وأمسكتُ بباب الغرفة وناديتُ بأعلى صوتي: اتركوها يا مجرمين، اتركوها يا ظلمة، إلى أين تريدون بها.

لم أكن متيقناً ان الصوت كان لأبنتي هدى، ولكن غيرتي دفعتني للصراخ، وضميري اهتز لندائها. قال لي عقيل:

ـ هل كانت بنتك؟

ـ لا أعلم، قد تكون وقد لا تكون. على كل حال أكمل الحديث الذي كنا فيه.

ـ كلا، إني أراك مضطرباً جداً، وحالك لا يسمح باستقبال أي معلومة الآن.

قال ذلك وذهب ليجلس في زاوية من الغرفة، بينما بقيتُ أنا ماسكاً بقضبان فتحة الباب اتطلع ما يجري خارجه.

لم أحصل على أي شيء في تطلّعي لما في الخارج، لذا عدتُ إليه وطلبتُ منه إكمال حديثه، فقال:

ـ القسم الثاني هو توحيد الصفات والذي يعني أن تعتقد بأن صفات الله هي عين ذاته.



ـ اسمع كثيراً هذه العبارة (صفات الله عين ذاته)، ولكني حتى الآن لم أفهم مقصودها، ولم أعلم ما علاقتها بالتوحيد.

تبسم الأستاذ عقيل، وقال:

ـ الحق معك، الكثير من المتكلمين يطلقون مثل هذه العبارات دون الأخذ بنظر الاعتبار أن أغلب الناس لا يعلم المقصود منها. وتوضيح معنى هذه العبارة يحتاج إلى البدء بالمحسوسات أولاً.

نظر لما حوله في الغرفة، ثم قال:

ـ مثلاً جدار هذه الغرفة الذي أمامك الآن، ما لونه؟

ـ أراه أزرق غامق.

ـ لو أزلنا هذا اللون الأزرق الغامق عن الجدار أو أبدلنا لونه إلى لون آخر، هل تبقى تسميته جدار؟ أم يصبح شيئاً آخر؟

ـ نعم يبقى جدار.

ـ إذن ذات الجدار بقيت رغم تغير لونه، وهذا يعني أن ذات الجدار شيء وصفة اللون شيء آخر مفصول عنه، وبعبارة أخرى إن صفة اللون الأزرق ليس عين ذات الجدار.

ـ نعم، ولكن هذا المثال يوضح عكس معنى العبارة التي نحن بصددها.

ـ صحيح، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء، وصفاته ليس كصفات خلقه، بل صفاته عين ذاته. يعني لا يمكن لنا أن نقول أن الله شيء وصفاته شيء آخر منفصل عنه كما هو حال الأشياء التي حولنا.

ـ اذكر لي مثالاً من صفات الله التي هي عين ذاته.



ـ مثلاً صفة القدرة، فلو فصلنا القدرة عنه تعالى لم يبق هو الله، وكذلك لو عزلنا صفة العلم أو الحياة أو السمع أو البصر عنه، لأن الله دون علم وقدرة وحياة وسمع وبصر ليس هو الله الذي نعبده[1].

ـ وماذا يحدث، أم هل تنقلب الدنيا على عقب لو اعتقدتُ ان صفات الله هذه ليس عين ذاته؟

ـ نعم، يحدث أنك لم توحّد الله، وأنك جعلتَ له شريكاً وهو صفاته، بل إنك في اعتقادك هذا جعلته مركباً من الذات والصفات وبهذا يكون محتاجاً إلى صفاته، لأن كل مركب فقير إلى أجزائه، والله منزه عن ذلك كله.

ـ وما الفرق بين أسماء الله وبين صفاته؟

ـ نحن مرة نقول شجاعة، فهنا قلنا صفة الشجاعة، ومرة أخرى نعني الشخص المتصف بهذه الشجاعة فنطلق عليه اسم شجاع، إذن الصفة إذا أتت وحدها مجردة عن الله تسمى صفة كما في الرحمة أو العدل وغيرها، أما إذا اقترنت هذه الصفة بالله تعالى فتسمى اسماً كاسم الرحمن والعادل والقادر وغيرها.

دخل علينا السجّان فانقطع حديثنا. دخل علينا بوجه عبوس تشتعل

---

(١) الكافي للكليني/ج١/ باب صفات الذات: (عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: لم يزل الله عزوجل ربنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور، فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم والسمع على المسموع والبصر على المبصر والقدرة على المقدور...)



نيران الغضب من عينيه فضربني على وجهي بيده، ثم تحوّل إلى الأستاذ عقيل ليضربه أيضاً ولكنه مسك بيده، وقال له:

ـ كم يعطيك سيدك الذي أنت تعمل معه؟

نظر إليه بحقد كبير ولم يجبه بشيء، فقال له:

ـ اريد أن أوفر لك عملاً غير هذا، تكسب منه شهرياً المبلغ الذي تأخذه الآن وزيادة عنه دون خوف واضطراب، فماذا تقول؟

أجاب مستهزئاً والغضب لم يزل ظاهراً على ملامح وجهه:

ـ خلّص نفسك أولاً ثم أوجد لي عملاً آخر.

ترك الأستاذ عقيل يد السجان، ثم قال له:

ـ أخرجنا من هنا وأنا أتعهد لك بذلك، وإن كنتَ تخاف من العصابة التي تعمل معهم فيمكن القبض عليهم جميعاً ونخلص الناس منهم، حينها تعيش حراً مع عائلتك دون أن يتأمّر عليك فلان وفلان، ودون ظلم للآخرين، فماذا تقول؟

أحسستُ عليه التردد والخوف الشديد من أسياده، إذ لم يعطي لنفسه حتى فرصة للتفكر فيما عُرض عليه، لذلك غادرنا حتى إننا لم نعلم ماذا كانت غاية مجيئه وضربه لي!

التفت لي الأستاذ عقيل، وقال:

ـ صفحته سوداء ليس فيها مجالاً للعودة إلى الصواب، يخاف سيده أكثر مما يخاف الله خالقه!

أراد الأستاذ عقيل أن يقوم من مقامه، فقلتُ له:

ـ أتعبتك كثيراً يا أستاذ، ولكنك تعلم أن الدقائق تمضي والعمر مع



حركات أميال الساعة ينقص لحظة بعد لحظة. إذا كان قد أتعبك الجلوس فلنقم، إني أخاف أن يأتي السجان مرة أخرى ويقطع حديثنا إلى الأبد.

قام من مقامه مترجلاً في الغرفة رغم صغر حجمها، وقال:

ـ أما توحيد الخالقية فهو أن تعتقد بأنه لا خالق الا الله، ولا مؤثر في الوجود سواه، وكل شيء غيره مخلوق له، وقد صرّح الله في كتابه بهذه الحقيقة حين قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[1].

ـ ولكن القرآن الكريم يقول أيضاً: ﴿..فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[2]، وذلك يعني وجود من يخلق أيضاً غير الله، فكيف نوفّق بين الآيتين؟

ـ لو فرضنا أن زيداً صنع ماكنة لصنع لعب الأطفال، وبدأت الماكنة تعمل وتنتج، فهل يمكن القول بأن زيداً هو الصانع لهذه اللعب؟

ـ نعم، يمكن ذلك، لأنه هو الصانع بالأصالة للماكنة، ولو لم يقم بصنعها لما كانت هناك ماكنة ولا لعب أطفال.

ـ أحسنت، وفي الوقت نفسه يمكن أيضاً القول بأن الماكنة هي التي عملت وأنتجت هذه اللعب. إذن بما أن الله هو الخالق للإنسان، وهو الذي مكّنه من صنع وخلق الأشياء، فيمكن القول بأن الله هو الخالق الأول بالأصالة، والإنسان خالق أيضاً ولكن بإذنه تعالى،

---

(١) غافر / ٦٢

(٢) المؤمنون / ١٤



وبالإمكانات التي وهبها له، ولولا مشيئة الله لما كان إنسان في الوجود ولا أشياء يخلقها الإنسان.

شعرتُ بارتياح لفهمي هذا المطلب رغم صعوبته، وأصبحتُ أحس بكشف غمائم سوداء كانت تحجبني عن معرفة ربي، نعم، إنها غمائم الشكوك والظنون التي توحي لي بوجود تناقض في كلام الله وأفعاله، ولكنها لم تنكشف كلها من أمامي حتى الآن، لذا سألته عن مسألة أخرى، وقلتُ له:

ـ حسب علمي أن كلمة شيء في اللغة تعني كل موجود سواء كان مادياً كالأجسام، أو غير مادي كالأقوال والأفعال وغيرها، فهل يعني ذلك أن الله خالق حتى أفعالنا وأقوالنا وأفكارنا؟

ـ نعم، كل ما يأتي في ذهنك من شيء فإن الله خالقه.

ـ إذا كان الله خالقٌ حتى أفعالي وأفكاري فلماذا يحاسبني على أفعالي السيئة؟

تبسم الأستاذ عقيل، وقال:

ـ أتذكر يوم دعوتني إلى الحديقة العامة ودار حديث بيننا حول القضاء والقدر؟

ـ نعم، أذكر ذلك.

ـ في وقتها أيضاً سألتني عن الآية التي تقول: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾[1]، وقلتَ إن أعمالنا شيء من الأشياء التي خلقها الله، فلماذا يحاسبنا ويتوعدنا بالنار على أعمالنا السيئة إذا

(١) الزمر/ ٦٢



كان هو خالقها، وليس لمشيئتنا أثر فيها؟ وقلتَ أيضاً إن الأحاديث تؤكد حقيقة أن لا مؤثر في الوجود غير الله، فأين يكون موقعنا من هذه المعادلة الغامضة؟ هل تذكر ذلك؟[1]

استغربتُ كثيراً من قوة حافظته وتذكّره لكل ما أشكلتُ عليه في ذلك الوقت. نعم، تذكرتُ الموقف والكلام الذي دار بيننا في الحديقة العامة، لذا قلتُ له:

ـ سبحان الله يا أستاذ، ما أقوى ذاكرتك! أجل سألتك في وقتها وأجبتني بوضوح عن هذا الموضوع، وضربتَ لي مثالاً رائعاً حينها. نعم، لقد كان توضيحك للمسألة مقنعاً جداً، وأنا أسحب سؤالي الآن، وأعلن إيماني بأن الله عادل لايظلم أحداً، ولا يلقي في النار أحداً دون استحقاقه لها. إذن ارجوك يا أستاذ انقلنا إلى القسم التالي من التوحيد.

ـ نعم، أما توحيد الربوبية فهو أن تعتقد بأن الكون بما فيه من مخلوقات وحياة وموت وحركة وسكون إنما له مدبّر ومتصرف واحد، وهو الله، ولو رفع الله يده لحظة واحدة عن هذا الكون لانعدم بما فيه، لأن وجود كل شيء إنما هو قائم بوجوده تعالى.

ـ ولكن ماذا تقول عن الآية الكريمة التي تقول: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾[2]؟ إنني أفهم منها أن هناك مِن مخلوقات الله مَن يدبر الأمر أيضاً.

ـ نعم، ولكن بإذن الله، ودون استقلالية عن الله، بل إن الله تعالى

(1) يراجَع الفصل الرابع من هذا الكتاب
(2) النازعات / ٥



هو الذي كلّفها بهذا التدبير، وفي أي وقت يشاء يسحب التكليف عنها.

توقف الأستاذ عقيل عن الكلام قليلاً، ثم قال:

ـ هل سمعتَ أو قرأتَ شيئاً عن مدينة النحل؟ وإن قرأتَ عنها فهل سألتَ نفسك ذات يوم عن الذي يدبّر ويدير أفراد هذه المملكة العجيبة من هو؟

أجبته وقلتُ له:

ـ سمعتُ عن بعض عجائبها، وأحبّ أن أسمع منك المزيد عنها.

قال:

ـ تبدأ العجائب من أول يوم تضع فيه الملكة بيوضها، إذ تضع كل يومٍ من ألفٍ إلى ألفي بيضة. والذي يأخذ بالألباب، أن هذه الملكة تضع الذكور في مكان، والإناث العاملات في مكان، والملكات في مكان، وكأنها تعرف نوع المولود قبل الولادة دون أجهزة سونار وأمثالها!

ومن عجائب هذه المملكة معرفة عاملات النحل وظائفها بتلك الدقة المتناهية، إذ حسب قول العلماء أن تقسيم وظائف هذه العاملات يكون حسب عمرها، فمنها من تعمل على تغذية الأفراد أو اليرقات الصغار، ومنها من تبني المقصورات الملكية، وبعضها من يختص بتخزين الرحيق وصنع العسل، ومنها من تقوم بحراسة مدخل الخلية من الأعداء والدفاع عنها، ومنها من تحافظ على درجة الحرارة إذ تعمل على تهوية الخلية عن طريق تحريك أجنحتها وبسرعة مما يساعد على تبريدها في الجو الحار، ومنها من تقوم بتنظيف الخلية



فتجمع الفضلات وغيرها وتلقيه خارجاً، وقسم آخر من تقوم بعمليات الإصلاح خارج الخلية، وذلك بسد الشقوق التي قد توجد في الجدران والتي يمكن أن يدخل منها الأعداء أو يتسرب منها ماء المطر، ومنها من يختص بجلب الرحيق الذي يُصنع منه العسل، واللطيف أنها حينما تعود كل إلى خليتها فإنه لا يسمح لها حراس الخلية بالدخول إذا كانت من خلية أخرى، ولا أعلم كيف يعرفونها من بين آلاف النحل المنتمي إلى خليتهم! وإذا ما حدث أن أتت إحدى العاملات برحيق وردة كريهة الرائحة فإنّها سوف تُكتَشف حين التفتيش عند أعتاب المدينة، وتُحكم بالإعدام جزاء خطأها هذا!

وأمر لطيف وعجيب آخر أذكره لك. هل سمعتَ عن رقص النحل حول خليتها؟

ـ لقد سمعتُ عن رقص البشر ولم أسمع عن رقص النحل، فهل للنحل احتفالات ومراقص أيضاً؟!

ـ نعم، ولكنه ليس رقصاً ترفيهياً كأمثالنا، بل هو رقص جدّي وهادف وله أنواع عديدة، فمنه الرقص الاهتزازي، ومنه التصادمي، ومنه الرقص الطنان، ومنه التشنجي، وآخر يسمى بالرقص التنظيفي و..

استغربتُ من هذه الأنواع التي يذكرها فقاطعته، وقلتُ له:

ـ أرجوك يا أستاذ ما هذا الكلام؟ كأنك أصبحت خبير بالرقص وأنواعه!

تبسم وقال:

ـ إن العلماء هم الذين يقولون ذلك وليس أنا. يقولون أن بعض أنواع الرقص فوق الخلية لغرض أن تخبر الراقصات زميلاتها بمكان



الأزهار بدقة متناهية، فالزاوية بين مركز الشكل الذي تتخذه في دورات رقصها وبين الخط العمودي هي نفسها الزاوية التي تقع بين الشمس وبين المكان الذي توجد فيه الأزهار، ومن ذلك تعلم زميلاتها الطريق الذي يجب أن تتجه به لتصل إلى مكان الطعام. والرقص في مملكة النحل لا يحدد فقط الاتجاه والمسافة التي يبعدها مصدر الغذاء عن الخلية، بل يحدد أيضاً مدى خصوبة وغزارة مصدر الرحيق، وأيضاً يحدد المجهود الذي تحتاجه والوقت اللازم للوصول إلى مكان الغذاء!

دهشتُ كثيراً من سماع هذه المعلومات، وماذا بوسعي أن أعلّق على حديث كهذا، لذا قلتُ له:

- سبحان الله! وماذا يقول العلماء عن مصدر هذه العجائب؟

- الأمر الذي حيّر العلماء هو ما ذلك الشيء الذي يدفع عاملات النحل إلى هذا العمل الدؤوب؟ بل من الذي علّمها ومن قسّم بينها هذه الوظائف الدقيقة، ومن وضع تلك القوانين وذلك النظام الحاكم الذي يخضع له كل أفراد الخلية؟!

يقول (مترلينك) عالم البيئة البلجيكي الذي أجرى العديد من الدراسات حول حياة النحل والنظام العجيب الذي يحكمها: (إنّ ملكة النحل هي كسائر أفراد هذه المدينة في إطاعتها للقواعد والأنظمة الكلية السائدة، إنّنا لا نعلم كيف وضعت هذه القوانين والأنظمة، وننتظر أن نفهم هذا الأمر يوماً ما، ونعرف من هو واضع هذه المقررات، إلاّ أنّنا نسميه مؤقتاً روح الخلية)!!

ويبدو أن (مترلينك) علم من أبحاثه أن ملكة النحل وظيفتها وضع



البيوض وليس إدارة المملكة وسن قوانينها، لذلك تحيّر في هوية مدير الخلية ومدبّر أمورها وواضع قوانينها.

وعلينا أن نجيب (مترلينك) ونخرجه من حيرته هذه ونقول له بأن الله قد أجاب عن تساؤلاته قبل ١٤ قرن حين قال في كتابه الكريم: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

هذا الكلام كله عن خلية نحل، فما بالك بإدارة الكون بما فيه من مجرات وكواكب ومخلوقات، إذن من هو ذلك المدير القادر على إدارة شؤونها ويكون ربا لها سوى الله؟

لا أعلم إن كان قد انتهى كلامه عن توحيد الربوبية أم لا، إذ انقطع حديثنا بسماعنا صوت طلقات نارية مع صياح من هنا وهناك. انطلقنا معا لنشاهد ما الذي يحدث في الخارج، وسألنا السجان الواقف أمام باب الغرفة فأجابنا بكل هدوء:

ـ لا شيء، قتلوه وانتهى كل شيء!

نعم، هكذا حالهم، يقتلون البشر وكأن شيئاً لم يكن، بل هو أهون عليهم من قتل ذبابة أو بعوضة!

لم نكمل الحديث إلا في الليل لأني رأيته قد تأثر كثيراً من حالات القتل التي تحدث هنابين الحين والآخر، وفي الليل وقبل بدأ الحديث قال لي:

---

(١) النحل / ٦٨ ـ ٦٩



ـ أشعر يا أحمد وكأن هذه الليلة هي الأخيرة معك!

ـ ومن أين علمتَ ذلك؟

ـ إنه إحساس لا أكثر.

ـ أنا أعلم يا أستاذ أنه إحساس لا أكثر، وسؤالي منك كيف تولد لديك هذا الإحساس؟

لم يجب الأستاذ على سؤالي، واكتفى بنظراته لي، ثم قال:

ـ على كل حال، إني أفكر يا أحمد في فعل عمل أنقذ به هؤلاء المساكين المحتجزين هنا من أيدي المجرمين، وأنقذ الناس به من حالات الخطف والقتل التي يتعرضون لها.

ـ وكيف ذلك؟

ـ إنني تمكنتُ حينما أتيتُ إلى هنا من رفع قطعة القماش قليلاً والتي وضعوها فوق عيني أثناء مسيرنا في الليل، وقد علمتُ حينها مكان مقرهم هذا وحفظته، بل حفظتُ حتى مدخلهم السري وكيفية الوصول إلى هذه الغرفة. ان هذا المكان هو بيت ضخم جداً، وفيه ممرات طويلة كل منها يؤدي إلى عدد من الغرف، وأنا عازم على الهرب والإتيان بقوة تقهرهم، وتقبض عليهم.

ـ ولكن ذلك يعرضك للقتل الحتمي، فكيف سوف تستطيع الإفلات من أيديهم مع هذه الحراسات الموجودة؟

ـ إن موتي وأنا على طاعة وعبادة الله أفضل لي بألف مرتبة من الموت ذليلاً بين أيدي هؤلاء.

ـ وأي عبادة تقصدها؟!



- كل طاعة بخضوع خالص لله هي عبادة له، وإنك تستطيع أن تجعل كل عمل تعمله، وكل خطوة تخطوها، بل كل نفَس يخرج منك طاعة لله وعبادة له.

- وكيف ذلك؟

- مثلاً حينما تطيع والديك، أو أستاذك، أو مسؤولك في الشركة، تنوي تلك الطاعة امتثالاً لأمر الله، وحينما تبتسم في وجه أخيك تبتسم لأن الله يحب تلك البسمة، وحينما تذهب لعيادة مريض أو زيارة صديق أو قريب تجعل علة ذهابك هو القربى إلى الله، والخلاصة أن تجعل محور كل طاعة هو الله وليس خلقِه، وذلك هو توحيد العبادة الذي لم يسعنا الوقت لشرحه.

- إذن أفهم منك أنك تعتبر فرارك من السجن عبادة لله؟

- نعم، لأن الهدف منه إنقاذ المجتمع من الظلم والفساد، وهو مما أمرني به ربي.

طلبتُ منه أن يشركني في خطته التي ينوي تنفيذها ولكنه نظر لي ولم ينطق بكلمة واحدة، وتحرك من مكانه ليجلس في زاوية من الغرفة الصغيرة. لم أفهم ما كان المقصود من نظراته هذه وسبب عدم استجابته لي في هذه المرة!



الفصل السابع

في رحاب المعشوق

كنتُ انظر له بين الحين والآخر فأراه وقد غرق في الدعاء. كان يدعو بصوت خافت ويحاول إخفاء دموعه الجارية، ولكني كنتُ أراها بوضوح. نعم، أراها، ويبدو وكأنه في عالم آخر!

دنوتُ منه من خلفه كي أسمع ماذا يدعو، ولِمن يناجي ربه، فسمعته يدعو لنا، ويتوسل بالله الينا!

قضينا الليلة بصعوبة بالغة حتى جاء الصباح، ولم يأتني النوم فيها قط، وأنّى لي ذلك وفكري دوّار بين الموت الذي ينتظرني، وبين حال ليلى ومصير بنتها..

تغلّب النوم على فكري عقِب صلاة الفجر، فأخذني معه ساعة استيقظتُ بعدها على صوت السجّان الذي أتى لنا بالطعام، رافقه شيء من التهديد والوعيد، وانه آخر إفطار نأكله لأننا سوف ننتقل إلى العالم الآخر كما يقول!

تناولتُ الإفطار بصعوبة بالغة لأجل بقاء رمق الحياة ليس إلا، ثم التفتُ إلى الأستاذ عقيل، وقلتُ له:

ـ قد تكون هذه آخر ساعات عمري، وأنا أطلب منك أن تعرّفني فيها على ربي تعريفاً يجعلني مشتاقاً له قبل الرحيل إليه، وأتوب في



حضرته توبة صادقة قبل أن يُغلَق باب التوبة من أمامي في عالم كله حساب ولا عمل.

استقبل ذلك مني، وأطرق قليلاً ثم قال:

ـ اعلم أولاً يا أحمد أن الرب الذي تقدِم عليه هو أرحم الراحمين، وإنه يقبل التوبة من عباده. أما قرأت قوله تعالى ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1]، ويعني ذلك أن أي شخص تعرفه في الدنيا وتعتقد أنه رحيم بك فإن الله أرحم منه. هل تظن أن هناك شخص أرحم من الأم بولدها؟

ـ لا أظن ذلك.

ـ إذن إعلم أن الله أرحم من الأم بولدها، وهل تظن هناك أمّ لا تريد الخير لولدها، أو تريد الانتقام منه؟

ـ كلا، لا أظن ذلك، ولكن اذكر لي شيئاً من مظاهر هذه الرحمة كي أتيقن أن الله أرحم من الأم بولدها، فإني شاهدت عطف الأم وحنانها لي في صغري، وشاهدتُ حب زوجتي وبكائها على بنتها، ولكني لم أشاهد رحمة الله بتلك الدرجة التي تذكرها.

كان من عادته أن يفكر قليلاً قبل أي كلام ينطقه، لذا أطرق هنيئة، ثم قال:

ـ رُوِيَ أنّ شيخاً كان يمشي في أحد الطرق، فرأى طفلاً جالساً يبكي، فسأله مِمّ بكاؤه؟ قال الطفل: إنّ أُمّي أخرجتني من البيت، وكلّما أستجير بالبيوت الأُخرى لا تُفتح لي أبوابها. قام الشيخ ليذهب

---

(١) سورة يوسف/ ٩٢



في طريقه ولكن الطفل تعلّق به وطلب منه أن يشفّعه لدى أُمّه، فوافق على ذلك، وأخذه إلى بيت أمّه التي بكت حين مشاهدته، وقالت: يا شيخ، نِعم الشفيع أنت، ولكنّه كلّما أمنعه من اللعب لا ينزجر، فاعلم أنه لو خرج مرّة أخرى من البيت إلى اللعب من دون إذني قطعتُ عنه علاقة الأمومة. وافق الشيخ على ذلك، وطلبت الأم منه أن يكتب رسالة بهذا المعنى كي لا يلعب بعد هذا مع الأطفال، وخلاف ذلك فإنه ليس ابنها ولا هي أمه. كتب الشيخ ذلك في ورقة وأعطاها إيّاها، حينها أخذت بيد الطفل وأدخلته البيت، فما مضت إلّا سويعة وإذا بالطفل قد خرج من البيت مرة أخرى، وانشغل باللعب مع الأطفال. غضبت الأمّ وسدّت عليه الباب، وبعد انتهاء اللعب ذهب كلّ واحد منهم إلى بيته، وبقي الطفل وحده مرة أخرى، فجاء إلى بيت أمه، ولكنه كلّما دقّ الباب لم تفتحه له، فالتجأ إلى بيوت الجيران واحداً واحداً، ولكنّهم لم يفتحوا له أبوابهم، حينها احتار في أمره ورجع مرّة أخرى إلى بيت أمّه، وكلّما دق الباب لم يُفتح له، فأخذ يبكي ويئنّ، وجعل وجهه على التراب إلى أن أخذه النوم وأمّه تراقب حاله من على السطح، وحينما رأت طفلها قد نام بكمال الذل والانكسار في التراب رمت بنفسها، ورفعت رأس طفلها من على التراب، وأخذت تمسح الغبار عن وجهه وهو نائم، ولمّا استيقظ ونظر إلى وجه أُمّه قال لها: يا أُمّي لو تقطَعي عنّي الماء والخبز فهو مقبول منك، ولو تفركي أُذني فأنا مستحقّ لذلك، ولو تتركيني في البكاء والأنين أتحمّل ذلك، ولكنّ الذي أطلبه منكِ أن لا ترسليني من باب بيتك إلى أبواب الآخرين.

وأنا أقول لك يا أحمد متى أرسلك ربك إلى باب غيره؟ وإذا كانت هذه الأم قد أغلقت باب بيتها على ولدها، فمتى أغلق الله باب



التوبة على عباده، وقد قال في كتابه العزيز: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[1]، بل الله يحب التوابين، ويعطي هدية البشرى لمن طرق بابه وأناب إليه بعد المعصية، أما قرأتَ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾[2].

توقف الأستاذ عقيل قليلاً، وحينما لم يسمع مني أي تعليق على كلامه، قال:

ـ كل وجودنا رحمة من الله، بل غاية خلقنا هي الرحمة..

قاطعته، وقلتُ له:

ـ إذن لماذا يُدخل الله العاصين في النار، وهل في النار رحمة؟

أجاب عن سؤالي بسؤال يقابله، إذ قال لي:

ـ وهل أنت تكره ابنك حين تعاقبه، ولا تريد له الخير حين تزجره؟

ـ كلا، إنما يفعل الأب ذلك لمصلحة ابنه ولغرض إصلاحه.

ـ وقد يضطرك شدة تمرد ابنك إلى حبسه في غرفة، وقد تمنع الطعام عنه. كل ذلك لأجل أن يعود إلى جادة الصواب، كل ذلك لأنك تحبه وتريد له الخير، أليس كذلك؟

ـ نعم، هو كذلك.

ـ الله يحب خلقه، ويحبك يا أحمد، ولو لم يكن كذلك لما دعاك إليه من أول مرة عصيتَه فيها، بل في كل مرة تعصيه يدعوك إلى الإنابة

---

(١) الشورى/ ٢٥
(٢) الزمر/ ١٧



إليه، ويوعدك بالجنان الواسعة والسعادة الابدية. لم يتنفر منك، ولم يقل لك لا تأتي إلى بابي مرة أخرى، بل يقول لك عد إليّ فإني أحبك وأحب التوّابين[1].

ولكن حينما يستنفذ الإنسان كل الفرص المتاحة له في الدنيا، فيظلم نفسه ويظلم الآخرين، ولا يعطي أي مجال لرحمة الله أن تناله، فماذا يفعل له رب العباد غير تطهيره وبالإجبار في نار جهنم، حينها تكون نار جهنم أيضاً نعمة ورحمة على الإنسان..

قاطعته لأنه تراود في ذهني آيات من سورة الرحمن التي كنتُ أتحير حين قراءتها، لذا قلتُ له:

ـ الآن فهمتُ سر آيات سورة الرحمن التي تقول: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[2]. كنتُ أتساءل كيف يوبّخ الله الجن والإنس على تكذيبهم بآلائه ونعمه في موضع يذكر به جهنم والحميم، إذ يُفهم منها أن جهنم والحميم أيضاً من نعم الله وآلائه على الإنسان.

أحسستُ ببذرة حبّ لله قد زُرعت في قلبي، حبّ لذلك الرب الذي وسعت رحمته كل شيء. نسيتُ المصيبة التي حلّت بي، بل نسيتُ حتى السجن الذي أنا فيه، وأصبح كل وجودي يطلب المزيد من معرفة الله، لذا سألته:

ـ أنت تعلم أن الوقت قليل، ولقاء الرب قريب، فأي خطوة أخطوها كي ألاقيه وأنا محبّ له وهو محبّ لي؟

---

(١) البقرة/ ١٢٢ ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

(٢) الرحمن/ ٤٣ ـ ٤٥



ـ اعلم يا أحمد أن العاشق لا يشغل في قلبه أحد غير المعشوق، بل يكون وجوده في كل مكان بغير معشوقه غربة، وأنسه بين زحام الخلق وحشة، والعاشق لله لا يجد الطمأنينة إلا في ذكره، ولا يلتذ بشيء إلا بعبادته، ولا يأنس إلا بقربه..

قاطعته، وقلتُ له:

ـ إن الذي تقوله هو الذي أريده وأتمناه، ولكن لم تخبرني كيف أصل إليه، وماذا علي فعله لأكون كذلك؟

في هذه الأثناء سمعتُ صوت السجان وهو يفتح باب غرفة بجوارنا، فأحسستُ برجفة وخفقان في قلبي، فشكوت ذلك إلى الأستاذ وقلتُ له:

ـ كيف يمكنني التخلص من هذه الاضطرابات القلبية التي تنتابي دون إرادة مني. أنا أعلم انها ليس إلا خوفاً من المخلوقين، وأريد أن أكون كما أنت، لا يخفق قلبي خوفاً من أحد غير الله؟

ـ أتريد حقاً التخلص من ذلك؟

أجبته بكل لهفة:

ـ نعم أريد ذلك، وأنا صادق في كلامي.

أطرق قليلاً، ثم رفع رأسه وقال:

ـ عليك بتطهير القلب من كل شيء سوى الله، وما الرياء والاضطراب والإحساس بالخوف من الغير إلا نماذج من الشرك الخفي التي سببها الاعتقاد بوجود مؤثّر مستقل يستحق الالتفات إليه غير الله. نعم، إن المرائي يعمل لله، ولكنه في الوقت نفسه يخالطه حب الحصول على المنزلة والرتبة في قلوب الناس، مع أن الله تعالى



هو مالك القلوب والمتصرف فيها، وإن كل واحد منا لا يستطيع التصرف بقلبه دون إذن خالقه، فكيف بقلوب غيره؟

والآن أجبني عمّا أسألك بصدق وبما تعتقد به.

ـ أعدك بذلك.

ـ هذا الذي يخفق قلبك خوفاً منه هل يملك الموت والحياة لنفسه؟

ـ كلا.

ـ إذن هو لا يستطيع منح نفسه حياة ساعة فوق عمره، فكيف يملكها لغيره، أم كيف يمنعها أو يمنحها لسواه؟ وهل يستطيع أن يشرب جرعة ماء، أو يضرب أحداً، أو يخطو خطوة دون أن يشاء الله له ذلك؟

ـ كلا، لم يكن ولن يكون.

ـ ثم إن هذا الذي تخاف منه من هو؟ أليس هو إنسان ومخلوق ضعيف مثلك، أليس أوله نطفة قذرة وآخره جيفة نتنة، وهو فيما بينهما معمل وحامل للعذرة؟ فقيمة الإنسان إن كان مقياسها هذا البدن وشكله الخارجي فحقيقته هذه، كله ضعف ونقص يخجل الإنسان حتى من ذكر بعض صفاته. ولكن حقيقة الإنسان يا أحمد وقيمته ليس بذلك البدن، بل بكمال روحه التي لا تفنى..

نعم، المؤمن قيمته بروحه العالية المرتبطة بالله المتعال، وأنت أقوى وأعظم من ذلك السجان الضعيف الذي حبس روحه في شهوات بدنه، ولا يستطيع أن يخرجها منه، أنت تطيع وتتكل على خالق السماوات والأرض والمتصرف بهما وبما فيهما، وذلك السجّان يطيع رئيسه الذي لا يملك لنفسه جرعة ماء إن منعها الله عنه.



في هذه الأثناء مرّ أمام الغرفة مجموعة من جلاوزة الخاطفين فنظرتُ إليهم بتمعن، ولكن نظرتي هذه المرة كانت تختلف عن المرات السابقة! نعم، كان قلبي في كل مرة يضطرب منهم، ولكني الآن لا أحس بذلك، بل أصبحتُ أحتقرهم وأشعر بالتكبّر عليهم.

يبدو أن الأستاذ أحس مني ذلك أيضاً، فتبسم وقال:

- من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء[1].

طلب مني الأستاذ أن أرتفع إلى مرتبة أعلى من التي وصلتُ إليها وهي مرتبة الحب لله، إذ قال لي:

- إذا أردت ان تحب الله فأدعو من القلب بهذا الدعاء: (يا مَنْ أَنوارُ قُدْسِهِ لأَبْصارِ مُحِبِّيهِ رائِقَةٌ، وَسُبُحاتُ وَجْهِهِ لِقُلُوبِ عارِفِيهِ شائِقَةٌ، يا مُنى قُلُوبِ الْمُشْتاقِينَ، وَيا غايَةَ آمالِ الْمُحِبِّينَ، أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ كُلِّ عَمَلٍ يُوصِلُنِي إلى قُرْبِكَ، وَأَنْ تَجْعَلَكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا سِواكَ...)[2].

كررتُ ذلك الدعاء مع نفسي مرات عدة حتى أحسستُ بأنه دخل إلى الأعماق، ودخل معه الحب لله.

سررتُ كثيراً بهذه الدرجة التي وصلتُ إليها، إلا أن هذا السرور لم يستمر، إذ جاءوا فيما بعد وأخذوا الأستاذ عقيل من بين يديّ بعد أن أغلقوا عينيه وقيدوا يديه.

---

(١) الكافي للكليني/ج٢/ ص١٠٣: (عن الهيثم بن واقد قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء).

(٢) مفاتيح الجنان/ مقطع من مناجات المحبين للإمام السجاد عليه السلام



لم تمض دقائق عدة حتى حدثت ضجة كبيرة في كل أرجاء السجن الذي نحن فيه، عقبتها إطلاقات نارية هنا وهناك، بل اختفى حتى السجان الذي كان واقفاً بباب غرفتنا!

سبحان الله، قد فعلها الأستاذ عقيل، ولكنه هل استطاع الإفلات من أيديهم أم أمسكوا به، أم قتلوه؟ مضت ساعة من القلق العظيم على مصيره لم أستطع الجلوس فيها لحظة واحدة، وبقيت أحوم بين جدران الغرفة أصرخ مرة وأهدأ أخرى...

كنتُ أسمع أصواتهم ولكني لم أفهم منها شيئاً حتى عاد السجان مرة أخرى، فهرعتُ إليه أسأله عن الذي حدث، ولكنه كان في كل مرة أكرر السؤال عليه يمتعض مني ولم يجبني، بل ينظر لي بنظرات سخط وغضب شديدين يحرق بها قلبي.

في ليلة من الليالي بعد فراق الأستاذ كنت منشغلاً في أداء صلاة المغرب.. أحسستُ بدخول شخص ما إلى غرفتي حيث كنت وحيداً فيها، وحين دخوله لم يمهلني أن أتم صلاتي حتى ضربني بعصاه على رأسي وقعتُ من أثرها على الأرض، وأحسستُ حينها بصداع شديد. رفعتُ رأسي بصعوبة بالغة لأراه واقفاً أمامي وينظر لي بنظرات حقد وغضب شديدين!

قلتُ له:

ـ لماذا ضربتني؟

اشتعلت نيران الغضب أكثر فيه، ثم قال:

ـ أقولها لك بصرحة، إني أحقد على كل من يصلي ويلتزم بهذه



الخرافات القديمة، عبادة، صلاة، صوم، تدين، وأمثالها.. ألا تعلم أين وصلت الدنيا وأنتم لا زلتم تقيّدون أنفسكم بهذه الأفعال!

مسكني وجرني من شعر رأسي بقوة، ثم قال لي:

ـ اعلم أن حقدي عليك وعلى أمثالك يجعلني أعذبك طالما أنت في قبضتي!

لم يمهلني الإجابة والتعليق على كلامه، إذ أشار إلى جلاوزته ليبدئوا أول جولة من التعذيب لي.

كان يأتي هذا الرجل يومياً ليصب قسطاً من الضرب والشتم عليّ، وكنتُ أحس بأنه يلتذ بذلك، وفي كل يوم يبتكر نوعاً وأسلوباً جديداً من أساليب التعذيب حتى استغرب رفقائه منه ومن الحقد العجيب الذي يحمله على كل من يذكر اسم الله على لسانه!

أحسستُ أنه بلاء عظيم وامتحان لي من الله، إذ كان في كل ليلة يأمر جلاوزته بالضرب لي أولاً ثم يبدأ بالمحاورة معي مستهزئاً بالمبدأ الذي أحمله، وفي كل مرة أدافع فيها عن عقيدتي وإيماني بالله، ولم يستطع الرد علي يشير إلى جلاوزته بأخذ الدور المقرر لهم، ولا يكفّوا عني إلا حينما يشير إليهم مرة أخرى حيث أصل إلى مشارف الموت أو الإغماء، بعدها يقول لي: والآن من المنتصر في الحوار!

لم يكن يترك لي أي قوة أتمكن بها من النهوض في جوف الليل لمناجاة ربي، بل في أكثر الأحيان يُغمى عليّ حتى الصباح من أثر التعذيب والجروح التي يتركها على بدني.

على كل حال كانت محنة في غاية الشدة والقسوة، ولله الحمد أن أعانني على تجاوزها بنجاح على الرغم من استمرارها لثلاثين يوماً، إذ



افتقدت ذلك الرجل في الليلة الواحدة والثلاثين، وسألتُ الحارس عنه فأخبرني بأنه سوف لن يأتي هذه الليلة بعد أن علم أنه مصاب بمرض خبيث لا علاج له!

في هذه الليلة فقط استطعتُ أن أقضيها وحيداً بين جدران الغرفة، حزينا بين مناجاة ربي والدعاء، وبين البكاء على فقد المعلم وفراقه حتى أصبح الصباح. نعم، أصبحتُ وقد صغرت الدنيا في عيني، وأصبحتُ متيقناً بأنه لا يحدث أمر صغير ولا كبير في الكون إلا بإذن الله، ولا يموت أحد ولا يحيى إلا بإذن الله، ولا يبطش سجّان، ولا يظلم ظالم، ولا يُقتل مظلوم إلا بأذن الله.

كنتُ أعلم من قبل أن الله يسمع ويرى، وهو أرحم من الأم بولدها، ولا يفعل إلا الخير لعباده. كنتُ أعلم من قبل أنه لا تسقط من ورقة ولا حبة في ظلمات البر والبحر إلا بإذنه[1]، كنتُ أعلم ذلك كله، ولكني الآن أصبحتُ مؤمناً به. نعم، أدركتُ الآن أن العلم وحده لا يكفي، ولا يعطي ثمره دون الإيمان واليقين به.

كان فراق المعلّم قد ترك حزناً عميقاً وعظيماً في قلبي، ولكني أحسستُ أن هذا الأمر كان لا بد منه كي لا يبقى أحد غير الله معي، كما أني تيقنتُ أن البلاء الذي تعرضتُ له، وأقسى ساعات المحنة التي قضيتها لم تكن إلا رحمة من ربي كي أرتقي بها إلى مراتب الكمال، نعم، الآن علمتُ أن العاشق لا بد أن يفدي بما لديه من أجل المعشوق، وكل ما لديّ الآن هي حياتي وقد فديتها لله.

(١) الأنعام/٥٩: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.



الآن فقط عرفتُ معنى التوحيد وتذوقتُ حلاوته، حينها جلستُ في زاوية من الغرفة وقد غرقتْ عيني بالدموع، وناجيتُ الأنيس الوحيد الذي بقي معي:

إلهي (اَنْتَ الَّذى اَشْرَقْتَ الأَنوارَ فى قُلُوبِ اَوْلِيآئِكَ حَتّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدوكَ، وَاَنْتَ الَّذى اَزَلْتَ الأَغْيارَ عَنْ قُلُوبِ اَحِبّائِكَ حَتّى لَمْ يُحِبُّوا سِواكَ، وَلَمْ يَلْجَاوا اِلى غَيْرِكَ. انت الْمُونِسُ لَهُمْ حَيْثُ اَوْحَشَتْهُمُ الْعَوالِمُ، وَاَنْتَ الَّذى هَدَيْتَهُمْ حَيْثُ اسْتَبانَتْ لَهُمُ الْمَعالِمُ)[1].

أشعر الآن أني وجدتُ شيئاً كنتُ قد فقدته منذ زمن طويل. صحيح أني خرجتُ أبحث عن هدى، ولكني كنتُ أشعر في وقتها أني أبحث عن شيء أكبر منها، نعم، وقد وجدته الآن.

أحسستُ أنها الساعات الأخيرة من عمري. نعم، ولكن من أين أتى لي ذلك، وما سببه؟ يبدو أن هذا الإحساس هو عين ما كان يشعر به أستاذي ومعلمي.

آه، الآن فهمتُ لماذا لم يجبني الأستاذ عقيل حين سألته عن كيفية تولد هذا الإحساس لديه. علمتُ الآن أن إحساسه لم يكن إلا نتيجة صفاء قلبه وخلوصه لله، ولم يشأ أن يخبرني بذلك كي لا يخالطه الرياء.

كانت اللحظات تمضي وتنقضي لحظة بعد أخرى...

حقاً كنتُ أحس بها وكأنها لحظات عاشق قد لقي معشوقه بعد فراق طويل. صحيح أنني لم أجد هدى حتى الآن وهي الثلمة المفقودة

---

(١) مفاتيح الجنان/مقطع من دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام.



من كبدي، ولكني وجدتُ معشوقاً أكبر منها، حينها تكلمتُ مع ذلك المعشوق معلناً له أني حين وجدته وجدت كل شيء، ولم أفقد شيء: إلهي (ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ، وَمَا الَّذى فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ...)[1].

سمعتُ صوت أقدام السجّان وهو يقترب من الغرفة حتى وقف أمام بابها. دعوتُ ربي حينما رأيته أن يا إلهي: (أسكن قلبي خوفك، واقطعه عمن سواك، حتى لا أرجو ولا أخاف إلا إياك، اللهم صل على محمد وآله وهب لي ثبات اليقين، ومحض الإخلاص وشرف التوحيد...)[2]

قررتُ أداء امتحان لنفسي بأني لا أخاف غير الله، ولا شيء يسكن قلبي سواه، فعزمتُ على دعوة السجّان إلى الصواب، وتمعنتُ في وجهه الممتلئ غيضاً، ثم بادرته وقلتُ له قبل أن يصرخ في وجهي كعادته في كل مرة:

ـ لماذا أنت هنا؟

استغرب كثيراً من سؤالي، وازداد احمرار وجهه، وامتلأ غيضاً فوق غيضه، وارتفع صوته!

لم يضطرب قلبي منه، ولم يخفق من صراخه، وأحسستُ بالفرحة والسرور لذلك، فتبسمتُ وظن السجان أنني أسخر منه فتوقّد لهيب غضبه أكثر، وراح يصيح ويشتم ويصرخ بكلام بذيء يسمعه من في السجن. اجتمع الجلاوزة حوله وجاء رئيسهم على ما يبدو فصفعه على وجهه، وقال له: لماذا هذا الصراخ والضجيج؟

(١) مفاتيح الجنان/ مقطع من دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام.
(٢) مصباح المتهجد/ من أدعية السحر.



أصبح السجان ذليلاً صغيراً أمام سيده الأسوأ حظاً منه، وأجابه بأني سألته (لماذا أنت هنا). أمره بفتح باب الغرفة فدخلوا جميعاً واجتمعوا حولي، ثم توجه رئيسهم نحوي، وقال: أنت لماذا هنا؟

تأخرتُ قليلاً في إجابته لأني أردتُ استحضار حقارتهم وصغرهم أمام عظمة الله، وأن الأمر كله لله، وحينما أسكنتُ ذلك في قلبي أجبته، وقلتُ له:

ـ ماذا فعلتم بعقيل؟ وأين هو الآن؟

لم يجبني وأوقد نار القلق في قلبي مرة أخرى بسكوته، وراح ينظر لي بنظرات حقد وكأنه يريد قتلي، ولكنه لا يعلم بأي صورة يقتلني من شدة غضبه، ثم صرخ مرة أخرى في وجهي، وقال:

ـ سألتك أنت لماذا هنا؟

ـ إن ابنتي الصغيرة محجوزة لديكم، وقد أعطيتكم المال الذي طلبتموه، فلماذا لا تطلقوا سراحها وتعيدوها إلى أمها المسكينة.

أجاب وتبدو عليه علامات التمسخر من كلامي:

ـ وهل تريد أن تدلّ الشرطة بمكاننا، وتصف لهم أشخاصنا، هيهات لك ذلك.

ـ إنني لم أطلب منكم نجاة نفسي، بل ابنتي، نعم ابنتي هدى التي لم تتجاوز سن السابعة من عمرها، وأنّى لبنت في سنها أن تحفظ الطرقات وتميّز الوجوه وتصفها. أرجعوها إلى أمها التي سوف لا يهدأ لها بال، ولا يسكن لها حال، ولا تملّ من البحث عنكم ليلاً ونهاراً إن لم ترجعوها لها.



ـ إذن نقتلك ونطلق سراح ابنتك.

ـ نعم، ولكن قبل ذلك أريد الاطمئنان بأنها لم تزل على قيد الحياة، ولا أصدق كلامكم إلا بعد رؤيتها.

تقهقه قليلاً بصوت عال، ثم التفت إلى حاشيته مكشّراً فتبسموا أيضاً خوفاً منه دون أن يعرفوا سبب ضحكاته وتكشر أنيابه، بعدها قال لي:

ـ نأخذ مالك ونقتلك ولا نُريك ابنتك، ألا يمكن لنا ذلك؟

ـ أنتم في قمة الحقارة والحيوانية، ولا يُستبعد ذلك منكم، ولكن اعلم أنه إن لم يشأ الله هذا الأمر فإنه لا يكون ولن يكون.

غضب كثيراً من كلامي، وقال وهو في حالة فوران شديد:

ـ سوف نرى هل يجري ما يشاء ربك، أم الذي أنا أريده وأشاءه.

لم يمهله ربي أن يصدر أمره إلى حاشيته، إذ جاءه أحد أفراده واخبره بأن الرئيس يطلبه فوراً لأمر مهم! نعم، هكذا رحلوا جميعاً وغادروا الغرفة لأن الله لم يشأ لهم البقاء.

أحسستُ بعظمة ربي حينها، وعشتُ معه في تلك الساعة أحلى اللحظات، وتمنيتُ أن لا تنقضي أبداً ولا تزول إلا بزوال حياتي وانقضاء عمري.

استغربتُ من نفسي وسألتها أن كيف انقضى العمر وأنا أبحث عن أنيس بين الخلق كي أستأنس بكلامه، وألتذ بالحديث معه، غافلاً عن ربي! نعم، كنتُ غافلاً عن تلك اللحظات لأني لم أتذوقها، ولو تذوقتها لما تركتها. أعرضتُ عن عتاب النفس وتوجهتُ إلى ربي



للتكلم معه والسؤال منه: (إلهي مَنْ ذَا الَّذي ذاقَ حَلاوَةَ مَحَبَّتِكَ فَرامَ مِنْكَ بَدَلاً، وَمَنْ ذَا الَّذي اَنِسَ بِقُرْبِكَ فَابْتَغى عَنْكَ حِوَلاً)[1].

علمتُ من أحد الحراس ان رئيسهم قد أصدر أوامره بإطلاق سراح هدى مقابل قتلي في هذه الليلة، وقبل أن يحل ظلام الليل أخرجتُ دفتر مذكراتي الصغير الذي أخفيته طوال هذه المدة لأكتب فيه الرسالة الأخيرة إلى زوجتي.

أمسكتُ القلم وعيني تدور بين الورقة وباب الغرفة خوفاً من أن يراني أحد منهم فيكون حائلاً بيني وبين كتابة هذه السطور:

عزيزتي ليلى:

السلام عليكِ ورحمة الله. أرجو من الله تعالى أن تكوني الآن في تمام الصحة والعافية، وأن يجعلك بأحسن حال تحت ظل رحمته. أنا أعتذر إن لم أتمكن من العودة إليك بعد أن تركتك وحيدة على فراش المرض دون معين لك سوى الله. أرجو أن تكوني الآن سعيدة في اللحظة التي تفتحي بها رسالتي لأن ابنتك ستكون بين أحضانك، وأنفاسها تخالط أنفاسك، كما أرجو أن لا تشوبي هذه الفرحة بالحزن على فراقي، وعدم حضوري معكما في هذا اللقاء.

عزيزتي:

هل تذكرين آهاتك في جوف الليل حزناً على فراق هدى؟ هل تذكرين الأيام التي أصبحت ليالي ظلماء بفراقها؟ بل أصبحت الدنيا وما فيها لديك لا تعادل بسمة من بسماتها؟ أم هل نسيتِ دموعك التي

---

(١) مفاتيح الجنان / مقطع من مناجاة المحبين للإمام السجاد عليه السلام.



كانت تجري كجريان الماء من مصباته؟ أنا لم أنسَ ذلك، ولم يزل بريق عينيك يتلألأ، وصورتهما منطبعة في فكري، وأملي أن تكون نفس هذه الدموع جارية الآن منها ولكن ليس من ألم الفراق، بل من فرحة اللقاء.

الذي أريد أن أقوله لك وأنا على أبواب السفر إلى العالم الآخر الذي لا فناء فيه هو أني أسعد منك الآن، نعم، أنا سعيد في هذه اللحظات التي كتبتُ بها رسالتي أكثر من سعادتك الآن بعودة هدى اليكِ، إذن لماذا تحزنين على عدم وجودي معكما؟ أنت وجدتِ ثلمة كبدك وحبيبة قلبك هدى، وأنا أيضاً وجدت حبيبي الذي أصبحتُ لا أطيق فراقه، ولا يحزنني إلا بعده، ولا يسعدني إلا قربه، وإن تسأليني عن هوية ذلك المحبوب فسوف أعرّفه لك، ولكن قبل كل شيء أقول لك إن هذا المحبوب ليس بديلاً عنكِ، ولا عن حبيبتي هدى، وأنكما أعز في قلبي من كل أناس هذه المعمورة.

إن محبوبي الذي أتحدث عنه هو شيء آخر، إنه يحبك أنت أيضاً أكثر من حبك لهدى! نعم، أكثر بكثير.

قد تبتعد عنك هدى في يوم ما وتتركك وحيدة لتشق طريقها في الحياة، أما محبوبي فلا يتركني ولا يتخلى عني لحظة واحدة، لقد كان أنيسي في أوحش لحظات السجن هنا، وعوني في أقسى ساعات الشدة والبلاء.

ثم إني لم أنسَ الليالي التي قضيتيها ولم تر عينيك النوم فيها، ولا آلامك في الحر والبرد من أجل بنتك الوحيدة، ومن أجل أن لا يصيبها أي مكروه، أما محبوبي الذي أتحدث عنه فلا يحتاج إلى



مُدارات ولا رعاية، بل هو الذي يرعاني ويمنحني كل شيء، وهو لا يحتاج إلى شيء. هو الذي ينادي محبيه في جوف كل ليلة: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأجيبه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ أم هل من صاحب حاجة فأقضيها له؟ وهل من راغب في حياة لا تفنى وجنة خلد لا تبلى فأسكنه فيها؟ هل من طالب قصور عالية، وأشجار ظلالها دانية، وفاكهة كثيرة فأطعمه بها؟

إذن محبوبي الذي هكذا ينادي محبيه صاحب ملك عظيم، وهو ليس بحاجة لي، ولكن مع ذلك فهو دائماً يدعوني إلى جواره والتقرب منه. إنه لا يملّني أبداً وإن أساتُ إليه، ولا يتنفر مني وإن خالفته وعصيته، ولا يتركني وإن تركته.

عزيزتي ليلى:

بالتأكيد علمتِ الآن من هو المحبوب الذي أقصده من كلامي، وصدقيني إنني أصبحتُ أراه ظاهراً في كل شيء، وأراه حاضراً معي في كل آن وآن، بل أصبحتُ أعجب مِن الذي يبحث عنه ويقيم الأدلة على وجوده، فهو متى غاب عنا حتى نبحث عنه بين ثنايا الأشياء؟ ومتى خفي عنا حتى نستدل عليه بظهورها؟ الله نور السماوات والأرض، والنور ظاهر بذاته ومظهر لغيره، فإذا كان كذلك فكيف تكون الأشياء المفتقرة إليه ظاهرة أكثر منه؟ كلا، إن الذي لا يرى الله بقلبه أعمى كالذي لا يرى الشمس ونورها الساطع في وسط النهار.

الآن فقط علمتُ معنى كلمات الإمام حين يناجي ربه في دعاء عرفة ويقول: (إلهي ترددي في الآثار يُوجِبُ بُعْدَ الْمَزارِ، فاجمعني عَلَيْكَ بِخِدْمَة توصلني إِلَيْكَ، كَيْفَ يُسْتَدَلّ عَلَيْكَ بِما هُوَ في وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ



إِلَيْكَ، أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ ما لَيْسَ لَكَ، حَتّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ، مَتى غِبْتَ حَتّى تَحْتاجَ إِلى دَليل يَدُلُّ عَلَيْكَ؟ وَمَتى بَعُدْتَ حَتّى تَكُونَ الآثارُ هي التي تُوصِلُ إِلَيْكَ؟ عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ عَلَيْها رَقيباً، وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْد لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصيباً)[1].

عزيزتي:

هكذا حبيب ومعبود كيف لا أكون سعيداً بجواره، وكيف لا أشتاق إلى لقائه والدنو منه، بل أنا أدعوك إليه، وإلى معرفته، وتهيئة أسباب الرحيل إليه. وكلمة أخيرة أقولها لك وهي أن حبك الحقيقي إلى هدى يدعوك لأن تسقيها من نبع الإسلام الصافي، وتأخذي بيدها وتصحبيها معك إلى جنة الخلد حيث يكون العبد هناك أسعد وأقرب ما يكون إلى جوار المحبوب.

أنا راحل أمامك، وموعدي معك هناك عند المليك المقتدر...

أخفيتُ الدفتر والقلم سريعاً حين سماع صوت قفل الغرفة وقد خالطه صوت بكاء طفلة صغيرة! نعم، صوت طفلة ولعلها تكون ابنتي، بل هي! نعم، هي حبيبتي هدى قريبة مني...

مسك السجان بيدي بعد دخوله وقادني إلى ممر طويل، وكان صوت بكاء هدى يرن في سمعي أكثر وأكثر كلما تقدمنا خطوة بعد خطوة.

كنتُ لا أرى الطريق لأن عيني قد أُغلقت بقطعة قماش، أما دقّات قلبي فكانت تزداد شيئاً فشيئاً كلما اقتربنا من مصدر الصوت حتى سكنتْ! نعم، سكنتْ حينما عانقتها وضممتها إلى صدري بعدما أزالوا

---

(١) مفاتيح الجنان/مقطع من دعاء عرفة للإمام الحسين ﷺ.



الحجاب عن عيني وتركونا معاً في غرفة صغيرة. لم أكن أسمع منها غير كلمة بابا والبكاء، فاختلطت دموعي بدموعها، وما تمكنتُ من نطق كلمة معها حتى هدأتْ، حينها التفتُ إلى السجان الذي وقف أمام الباب، وقلتُ له:

- تعساً لذلك المال الذي من أجله تفرقون بين الإنسان وثلمة كبده.

لم يرقّ قلبه لكلماتي معه، إذ كان قلبه كالحجارة بل أقسى منها، فقال لي:

- قل ما تشاء، فما هي إلا لحظات وتنتقل إلى العالم الآخر.

أجبته وقلتُ له:

- إذا كنتَ تؤمن بالعالم الآخر فلماذا لا تعدّ العدة إليه؟

التزم الصمت ولم يجبني بشيء.

تركته وتوجهتُ إلى هدى وعانقتها مرة أخرى، ثم نظرتُ إليها فرأيتُ الدموع وقد ملأت خديها وتجري كجريان الماء فوق الجروح المبعثرة على وجهها! لم تزل ربطتها التي وضعتها أمها لها فوق رأسها برغم أن لونها الأزرق قد حل محله سواد غبار السجن، وقسوة الأيام فيه.

هدأتْ قليلاً بعد أن ضممتها إلى صدري مرة أخرى وغذّيتها بحنان الأبوّة الصادقة، ثم قالت:

- بابا، هل أتيتَ لتأخذني إلى أمي، لقد اشتقتُ إليها كثيراً.

- عزيزتي، سوف تذهبين إلى أمك عن قريب، حينها أبلغيها سلامي لها.



ـ ولماذا لا تأتي معي وتسلّم أنت عليها؟

ـ لأني اطلعتُ على أسرار المجرمين وصورهم، فلن يسمحوا لي بالذهاب معكِ.

سلمتها دفتر ذكريات رحلتي إلى الله، وأوصيتها أن توصله إلى أمها، فنزلتْ دمعتها من جديد على خديها، وقالت:

ـ بابا، إني أخاف الذهاب وحدي، لا تتركني مع هؤلاء.

فُتح باب الغرفة بقوة لأرى المجرمين وقد اجتمعوا خلفه بهيئة موحشة ولباس يوحي إلى قرب اللقاء، نعم، قرب لقائي مع الله الذي كنتُ أتخوف منه مرة وأرجوه أخرى، أما الآن فأشعر أن الخوف قد غادرني وبقي الرجاء..

التفتُ إلى هدى وقلتُ لها كلامي الأخير:

ـ حبيبتي، إن وجدتِ أمك على قيد الحياة فأبلغيها سلامي، وأخبريها عن لساني بأني وجدتُ الذي كنتُ أبحث عنه، وسوف أرحل إليه، وموعدي معك عنده في عالم البقاء، فلا تخلفي الميعاد.

الفهرس





هذا الكتاب

رواية تحكي قصة إنسان قد حُرم منذ صغره حنان الأمومة وعطفها، فعاش اليتم والفقر والظلم من أقرب الناس إليه، وفي كل ذلك كانت خيمة الجهل والضياع لا تغادره، ولم يكن له إيمانٌ بخالقه فضلاً عن معرفته... وتمضي الأيام بقساوة بالغةٍ حتى تزول عنه ستائر الفقر، ولكنّه يفقد صغيرته فيذهب باحثاً عنها في أرجاء المعمورة، وفي رحلة البحث عنها يعلم أن مفقوده الحقيقي ليس ابنته، بل هو الله الذي يعشقه كل من يعرفه، فيمضي في رحاب ذلك المعشوق، ويعيش معه لحظات عشق قبل رحيله إلى العالم الآخر...



للطباعة والنشر والتوزيع

بئر العبد- خلف محطة دياب

تلفاكس: 42 49 27 (9611+) - 00 29 55 (9611+)

جوال: 49 01 80 (9613+) ص.ب: 25/91 بيروت-لبنان

E-mail: dar_asafwa@hotmail.com